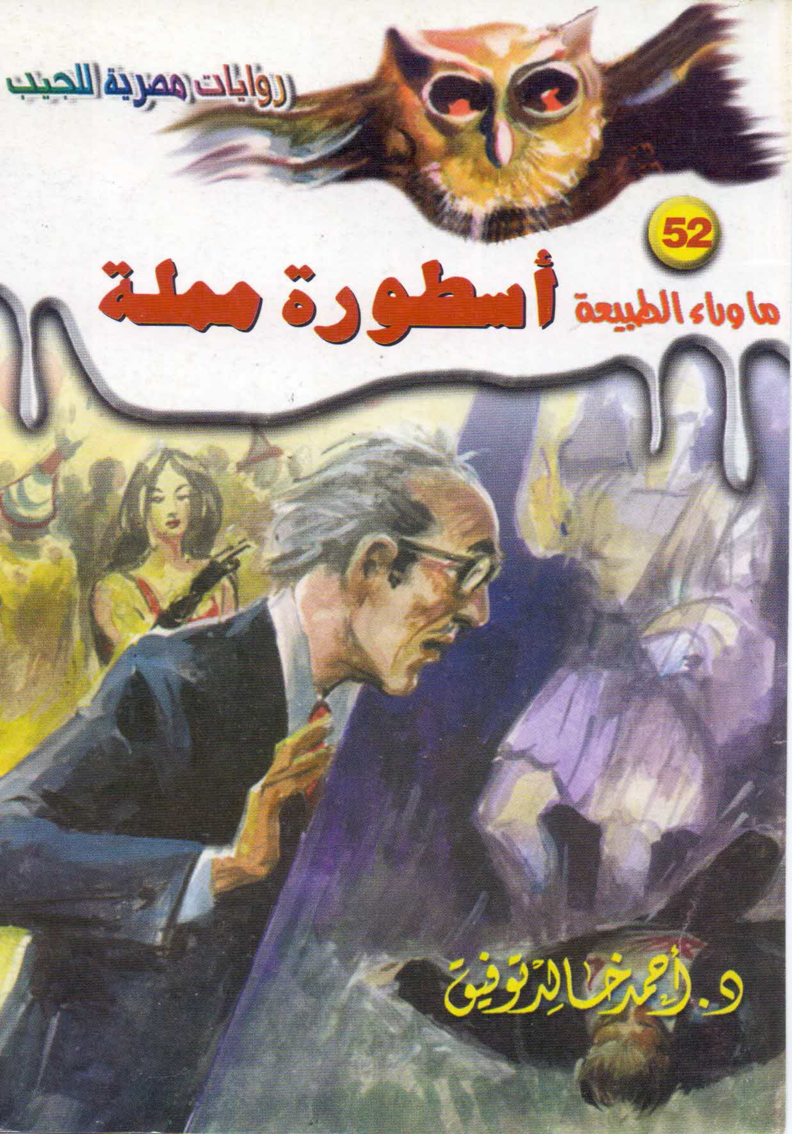

روايات مصرية للجيب
52
ما وراء الطبيعة
أسطورة مملة
د. أحمد خالد توفيق

ما وراء الطبيع

روايات تحبس الأنف

من فرط الغموض والرعب والا

روايات مصرية للجيب

أسطورة مملة

القصة التى نحن بصددها هى أسطورة مملة .. أسمع البعض يقول وهو يتثاءب : وما الجديد فى هذا ؟ .. البعض الآخر يتساءل فى خبث : وماذا كنت تفعل فى كل الكتيبات السابقة إذن ؟ .. البعض يعتقد أنها دعابة وأننى أخرق بهذا القواعد .. البعض يعتقد أننى - فقط - أتحذلق ..

الحقيقة أنه لا مزاح فى الأمر .. إن أسطورة اليوم مملة .. وحين يعدكم (رفعت) إسماعيل بأسطورة مملة فإنه يعنى ما يقول ..

لماذا هى مملة ؟ الجواب واضح تمامًا .... لأن ....

د. أحمد خالد ت



الثمن فى م
ومايعادله بالدو
فى سائر الدول

طباعة ونشر
ؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٦٨٢٧٠٠٢

العدد القادم :
أسطورة النبوء

52

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة مملة

روايات مصرية للجيب

●

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنَّف مصرى مائة فى المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو الاقتباس
أو النقل عن أية قصص أوربية .

●

إشراف
الأستاذ/حمدى مصطفى

●

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ـ المطابع ٨، ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية ـ منافذ البيع ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة ـ ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى
مصر الجديدة ـ القاهرة ت : ٦٨٢٣٧٩٢ ـ ٥٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٥٨٦١٩٧ فاكس ـ 202/2596650 ج.م.ع

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

52

أسطورة مملة

بقلم :

د. أحمد خالد توفيق



الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨١٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٢

مقدمة

مرحبًا بكم ..

لو صحت توقعاتى فأنتم تطالعون هذه السطور فى الشتاء .. والشتاء فصل أثير إلى نفسى .. أعتقد أننى بحق كائن يستمد وجوده من الشتاء والظلام .. يقول البعض إننى أنا نفسى شبح ، وإننى سأكشف عن هذه الحقيقة يومًا ما ..

فى الحقيقة لست ميالاً إلى هذه الفرضية الثورية .. كل ما فى الأمر أن من يعش دهرًا مع الرعب يصر غريب الأطوار إلى حد ما .. ربما مخيفًا كذلك ..

اليوم نجلس معًا .. نصغى لأصوات الأمطار فى الشارع ونرتجف ، ونتساءل ماذا لو لم نكن هنا ؟ ماذا لو كنا فى العراء .. فى البرد والظلام .. فى أماكن لم يرها بشر ولا يقدر أن يبلغها بشر ؟

إلى الشوارع المبللة بالمطر .. إلى القطط التى يبدو أنها ليست قططًا حقًا .. وإلى الماشين تحت الأمطار الذين يصعب أن تتأكد من حقيقتهم .. إلى كل هؤلاء أرسل تحياتى أسألهم أن يتركونى وشأنى ..

الليلة أحكى لكم قصة مملة ..

أسمع البعض وهو يتثاءب : وما الجديد فى هذا ؟ البعض الآخر يتساءل فى خبث : وماذا كنت تفعل فى كل الكتيبات السابقة إذن ؟ البعض يعتقد أنها دعابة وأننى أخرق بهذا القواعد .. البعض يعتقد أننى ـ فقط ـ أتحذلق ..

الحقيقة أنه لا مزاح فى الأمر .. إن أسطورة اليوم مملة .. وحين يعدكم (رفعت) إسماعيل بأسطورة مملة فإنه يعنى ما يقول ..

لماذا هى مملة ؟ الجواب واضح تمامًا ... لأن كل

أحداثها تدور فى حفل ، وهو حفل غريب ، لكن لا شىء تقريبًا يحدث فيه .. إن جريمة قتل أو اثنتين أو ثلاثًا فى حفل لا تشكل حادثًا غير معتاد هذه الأيام ..

إذن لماذا أحكيها ؟ سؤال غريب ! بالطبع أحكيها لأنها تختلف عن القصص السابقة أو هكذا أحسبها .. لقد اتفقنا على أن هذه الروايات (تحبس الأنفاس من فرط الغموض والرعب والإثارة) .. فماذا عن قصة لا تفعل هذا ؟ أليس هذا هو التجديد الحق ؟!

تعالوا نقرأ الصفحات التالية ،ولسوف نفهم أكثر ..

* * *

١ ـ دكتور (سامى) من جديد ..

حين تلقيت دعوة الدكتور (سامى) إلى ذلك الحفل فى الفيلا الأنيقة التى يعيش فيها مع امرأته مدام (ثريا) ، استغرقت نحو ساعة كى أتذكر من هو الرجل ، وكيف يجرؤ على دعوتى إلى حفل ..

ثم تذكرت الرجل الذى فى ضيافته كانت حلقة الرعب الأولى فى حياتى .. الرجل الأنيق المهذب الذى تشعر كأنه خرج من الحمام لتوه .. كلماته أنيقة .. أفكاره أنيقة .. أحلامه أنيقة .. وهذا يسبب لى الكثير من الغيظ .. فإننى أجد فى هذا كله شيئًا غير آدمى .. متى يفقد هذا الرجل وقاره ؟ ، ومتى يكور قبضته مهددًا بالضرب ؟ ، ومتى يصاب بسوء هضم أو يبرم قطعة من الورق ليسلك بها أذنه ؟

ثم هدأت قليلاً وقرأت الدعوة .. طبعًا لابد أن يتعامل هذا الرجل بأسلوب بطاقات الدعوة المطبوعة

كأننا فى البلاط النمساوى ، وقد كانت تكفينى كلمتان فى الهاتف : تعال .. حسن .. كانت الدعوة تقول : إن هناك حفلاً ، وإن غرضه التعارف .. وإنه سيبدأ الساعة التاسعة من مساء الثلاثاء يوم 31 ديسمبر .. هناك رأس سنة فى الموضوع .. إذن هناك الكثير من الحمقى الذين يلبسون الطراطير ويتظاهرون بالمرح ..

قررت أن أعتذر .. لابد أن أعتذر ..

كما يعرف القراء ، كان هذا الرجل مصابًا بنوع من المرض الاجتماعى يجعله لا يطيق أن يبقى وحيدًا يومًا واحدًا ، وهو ما فسرته بعشقه المبرح لغاز ثانى أكسيد الكربون .. أما أنا فأعشق الأكسجين ، ولا أطيق أن أمضى ليلة مع أشخاص يتبارون أيهم يصيح أعلى من الآخر ..

كان هذا قرارى حتى اليوم الثامن والعشرين من الشهر ..

ثم جاء موضوع يد (بيزارو) المبتورة التى تزورنى ليلاً ، والتى كانت تنوى الانتقام منى فى يوم ثلاثاء .. تعرفون بالطبع هذا الطراز من الأشياء .. هل تذكرون هذه القصة ؟ لم أحكها ؟ غريب .. أنتم تنسون .. لابد أننى حكيتها وأنتم تنسون ما أقول .. هذا يضايقنى فعلاً ..

ماذا ؟ حقًا لم أحكِها ؟ لا يهم .. إنها خارج الموضوع على كل حال .. أردت أن أقول : إننى كنت راغبًا أشد الرغبة فى ألا أتواجد فى دارى ليلة الثلاثاء .. ولكن أين أذهب ؟ من المؤسف أن أية غرفة فى فندق معرضة للهجوم عليها ، وكذا لو أمضيت الليل عند (عزت) .. أريد مكانًا مكتظًا بالبشر فأين هذا المكان ؟ هناك الفنادق الكبرى حيث تقام حفلات رأس السنة ، وهناك التخشيبة فى قسم الشرطة ـ وهو حل غير محبب ـ وهناك بالطبع حفل دكتور (سامى) ..

هكذا اتخذت قرارى .. إن الحفل مهما ساء لن يكون أسوأ من يد (بيزارو) ..

واتصلت بالدكتور (سامى) أشكره على الدعوة ، فنصحنى - فى شىء من الحرج - أن أتأنق قليلاً ؛ لأن هناك شخصيات لا بأس بها ستكون فى الحفل .. وهكذا وجدت نفسى مجبرًا على ارتداء (البذلة) الكحلية التى تجعلنى فاتنًا ..

وفى التاسعة إلا الربع وصلت إلى الإسكندرية ، واتخذت طريقى إلى فيللا مضيفى ..

★ ★ ★

كما قلت من قبل كانت الفيلا آية فى الرقى والذوق .. صحيح أنها لا تتغير أبدًا ، ولا يمكن أن أزعم أن هناك مقعدًا فارق مكانه بعد كل هذه الأعوام ، إلا أنها كما كانت دائمًا تحفة فنية تتمنى أن تتخذها بيتًا ومكتبًا وقبرًا .. نباتات الزينة التى لا تموت أبدًا ، والأثاث الأزرق الذى يلعب لعبة الألوان مع الجدران البيضاء .. أو الأبيض الذى يلعب مع البساط الأزرق لعبة الظلال .. أو ...

كان د. (سامى) وسيمًا كالعادة يرتدى سترة بيضاء وربطة عنق أنيقة ، وكان بعض الشيب قد غزا مفرقيه لكنه زاده وسامة .. ثمة نوع من الشيب يحيل الشعر إلى فضة ثمينة ، وشيب ـ كما يحدث معى ـ يجعل الرأس كأنما غُمس فى جوال دقيق ..

قال لى فى مرح اجتماعى :

ـ « أيها الصديق .. أيها الصديق .. كدت تنسى أننى موجود على ظهر الأرض .. »

وراح يكررها وهو يرتجف دون سبب مفهوم ، وظهرت مدام (ثريا) فى كامل أناقتها ، فحيتنى بهزة رأس أرستقراطية .. وقالت :

ـ « منذ تلك الليلة المرعبة لم نرك ، وإننى لأشعر أن الرعب مفيد أحيانًا .. »

قلت لها فى تهذيب :

ـ « إن كل ليالىّ مرعبة فلم أعد أميز أيها كانت أفضل .. لكنى مسرور على كل حال .. »

والحقيقة أننى قابلت الرجل عدة مرات ، منها مرة كان مقيمًا فى القاهرة يمارس رياضة الهرولة .. وأنا لم أفهم قط السبب الذى يجعل رجلاً بالغًا يصحو فى السادسة صباحًا ليجرى .. لكنى لم أمت كما أنه لم يمت .. برغم كل شىء نحن متساويان ..

ودخلت إلى قاعة الجلوس الكبيرة الرحبة التى تذكرك بميدان التحرير .. كان هناك عدد لا يقل عن الخمسين ضيفًا بين واقف وجالس .. ضاحك ومفكر .. متكلم وصامت .. رجل وأنثى .. والكلام يحدث ذلك الطنين المستمر الذى لا تعرف ما هو ، لكنه مزعج بما يكفى ..

أعرف هذه اللحظة على قلة ما شهدت من حفلات .. ألعب دور زهرة الحائط الخجول التى لا تجد من يكلمها أو تكلمه .. فأجلس فى ركن ما ، وأراقب الجميع ، وأتظاهر بأننى أعمق منهم وأفضل ..

لكن كان الحظ وافرًا بالنسبة لى هذه المرة .. لا لم أر (عادل) رفيق طفولتى ، ولحسن الحظ لم تكن هنا

(هويدا) وزوجها .. كان الدكتور (رمزى حبيب) عالم المصريات جالسًا إلى جوار زوجته (مارى) .. نسيت أن أقول لك : إنه صديق مشترك لنا ، وبالمناسبة هناك شبه غير عادى بين (سامى) و(رمزى) كأنهما نفس الرجل بالطباع ذاتها والعادات ذاتها .. فقط أحدهما اختار أن يدرس المصريين القدماء ، والآخر اختار أن يدرس نفسية المصريين المعاصرين .. بالإضافة لهذا ليس د. (رمزى) لوردًا إنجليزيًّا متخفيًا كما يجب أن نطلق على د. (سامى) .. إن د. (رمزى) ابن بلد حقيقى ، يفهم الناس جيدًا وله بديهة سريعة ودعابات كالرصاص ..

هذا جميل .. على الأقل لن أشعر بالوحدة ..

بعد السلامات والمصافحات والـ (كيف حالك أيها العجوز المنحوس ؟) والـ (هل لابد أن نزور الإسكندرية كى نلتقى ؟) .. بعد هذا كله اتخذت مجلسى إلى جوارهما ، ونظرت إلى الساعة .. كانت التاسعة والنصف .. سنرحل بعد ساعتين ونصف أو أكثر قليلاً ..

أنا سأذهب إلى ذلك البنسيون الذى اعتدته ، لأننى لم أعد أطيق القيادة الليلية ، وهما يقيمان فى شقتهما هنا على ما يبدو ..

قلت له باسمًا وأنا أشير إلى الحضور :

ـ « هل كل هؤلاء أصدقاؤه ؟ »

قال فى استخفاف :

ـ « ليس عددهم كبيرًا .. أنت خفاش آدمى لا أكثر .. لو أن الحفل كان مقصورًا على شخصين لقلت الشىء ذاته .. »

ـ « وهل وجه دعوات إلى كل هؤلاء ؟ »

ـ « يبدو لى أنه لا يعرف بعضهم ولم يدعه .. أنت تعرف عادة البشر .. ادع واحدًا ولسوف يحضر خمسة وتجد نفسك فى موقف غاية فى السوء من ناحية المؤن والإمدادات .. »

رحت أراقب الناس ، وبدا لى بالفعل أنهم مجموعة متباينة من الأشخاص لا يربطهم شىء ..

ظهر عازفان تعيسا الحال ؛ أحدهما يحمل كمانًا ، والآخر يحمل عودًا ، وجلسا فى مكان مرموق من القاعة ، ثم تقدمت فتاة شابة حولاء لتغنى أغنية قديمة لـ (ليلى مراد) .. أغنية من تلك الأغانى التى يقف فيها (أنور وجدى) بقناع ضابط قيصرى وسط الجموع ، ليرمقها فى افتتان ..

فى البدء دهش الناس لهذا الاقتحام ثم بدءوا يتحمسون ويشجعون ..

هنا ظهر د. (سامى) من مكان ما ، وقد تفصد جبينه بحبيبات العرق من فرط الإنهاك ، وقد اتخذ سيما رب البيت الذى يضحى بأى شىء من أجل ضيوفه .. رآنا فابتسم على طريقة (آه ـ هأنتذا ـ قد ـ وجدت ـ رفيقًا ـ جميل ـ جميل) .. فابتسمنا على طريقة (لا ـ تقلق ـ من ـ أجلنا ـ كان ـ اللّه ـ فى ـ عونك) ..

لكنه دنا منا وجلس جوارى ، بينما صوت المطربة يخرق طبلة أذنى .. ووضع يده على ركبتى وقال :

ـ « إن لدينا هنا أغرب مجموعة من المخابيل فى العالم ..»

- « آه ! أنت تفهم هذه الأمور جيدًا .. ومـن أتـى بهم هنا ؟ »

- « لا أدرى .. لكنى لن أسأل أحدهم من أتى بـه .. لن يكون هذا أرقى تصرف ممكن »

وابتسم فى تعب .. فعدت أسأله :

- « مخابيل من حيث ؟ »

هز رأسه :

- « لا أدرى .. لكنهم غريبو الأطوار حقًا .. »

ثم أشار إلى أحدهم ، وهمس فى أذنى :

- « هل ترى هذا الشاعر الحالم ؟ هل يكفـى هذا لجعل الحفل غريبًا ؟ »

نظرت إلى حيث أشار فوجدت جوار المدفـأة شـابًا نحيلاً أسـمر لـه وجـه حزين شـفاف .. وجـه شـاعر بالفعل ، وكانت ثيابه أنيقة منسقة ، وإن كان حجم نصفـه الأسفل أضخم قليلاً مما لا يتناسب مع نصفه الأعلى ..

لم يكن وسيمًا على الإطلاق ، لكن النظرة الساهمة المكسورة فى عينيه تنقلك إلى عالم لا تذكر أين هو ، لكنك تعرفه ..

وجواره كانت زوجته .. كيف عرفت أنها زوجته ؟ لأننى عبقرى .. أعنى أنهما كانا يتهامسان من حين لآخر ، وأحيانًا كان يربت على خدها وهو يصغى إلى الأغنية .. هنا أقف وقفة ..

زوجته كانت أجمل شىء رأيته فى حياتى .. لم تكن جميلة .. دعك من المزاح .. لقد كان جمالها خارقًا يتجاوز كلمة الجمال .. كان ينتمى إلى سديم كونى أرقى وأطهر وأسمى من عالمنا ، ولا تنطبق عليه صفاتنا الأرضية .. كنت أعتبر دومًا من يقول (غروب جميل) شخصًا أحمق .. الغروب أسمى وأرق من هذه الألفاظ الأرضية المبتذلة ..

كانت حزينة مثله بالضبط ، وإن كانت بشرتها الرهيفة الحساسة التى تنبض الأوردة من تحتها ، تعكس الحزن كما لا تستطيع أية كلمات أن تعكس ..

جوارهما كان طفل جميل فى الخامسة من عمره تقريبًا ، وأدركت أنه طفلهما كما هو واضح ، لكنه استمد جماله من الأم ..

كل هذا لا يثير شيئًا من الدهشة فى نفسى .. هناك خمسون ضيفًا هنا ، ويمكن أن تجد بينهم شتى الأشكال والطباع .. ولو أطلق أحدهم صهيلاً ، أو أخرج أحدهم من أنفه خرطومًا فلن يكون هذا غريبًا .. يكفى أن شخصًا غريب المظهر مثلى هنا بين المدعوين ..

ألم أعدكم أن تكون أسطورة مملة ؟



٢ـ الشاعر ..

انتهت المغنية من هذا الذى تفعلـه .. وقد بـرزت كل أوردتها إلى الحد الذى كان سيقتل (ابن الرومى) كمدًا ؛ فهو الذى وصف براعة المغنية بـأنك لا تـرى لها وريدًا ..

الآن تفرق النـاس .. ورأيت سيدة حسـناء فـى منتصف العمر تدنو من الشاعر وتهمس فى أذنـه .. من هذه إذن ؟ هز رأسه مرارًا فى أدب ثم عاد لشروده ، ولاحظت أن الحسناء الشـابة ليست مسـرورة جـدًّا بهذه الهمسة ..

خيل إلـى أنـه يحدث السيدة الأكبر سـنًّا بلفظـة (ماما) .. ماما ؟ لو كانت هذه الحسناء أمه فلابد أن أباه كان يشبه الخرتيت .. الأمر إذن واضح .. هذه أمه التى تملك السلطة كل السلطة عليه ، وهذا بـالطبع

لا يرضى زوجته الشابة التى لا ترضى أن يكون رجلها (ابن أمه) .. دعك من أن أمه ـ كما هو واضح ـ قوية الشخصية مسيطرة ومن الطراز الذى نسميه (يكيد ولا يكاد) .. أى أنها قادرة على جعل حياة زوجة ابنها الرقيقة جحيمًا ..

إن علاقة الحماة بزوجة ابنها تثير دهشتى .. إننى أجدها فى صورتها البدائية صراعًا بين امرأتين على رجل الكهف .. الأم تعتبر أنها صنعته وعلمته كل ما يعرف ، وتستحق أن يظل لها للأبد ، فلن تأتى حدأة لا موهبة لها إلا أنها تضع طنًا من المساحيق ، كى تسلبها إياه .. والزوجة ترى ببساطة أنه لا ذنب لها ؛ لأن هذه سنة الحياة ..

هنا تلعب الأم ألعابًا قاسية مع الزوجة .. يا حسرتى عليك .. ألم تقم الهانم بخياطة هذا الزر ؟ أمك ستفعل .. ألم تطه لك البامية كما تحبها ؟ أمك ستفعل .. ثم قل لى : لماذا تلبس الهانم هذا الثوب الذى لا يناسب وزنها ؟ ولماذا تصفف شعرها بهذه الطريقة التى تذكرنى بالمكنسة ؟

ثم تلوح بيدها فى رقة وتوسل : لا ... لا ... أرجوك .. لا توبخها .. أنا لا يعنينى إلا أن تكون سعيدًا .. انس ما قلته لك ، وهات لى القميص كى أخيط لك هذا الزر ..

هذا السيناريو بالطبع لو كانت الزوجة وديعة ، والأم من طراز أم الشاعر هذه .. العكس وارد طبعًا ..

الحمد للَّه على أننى لم أتزوج بعد .. ما كنت لأتحمل عش الدبابير هذا ..

كنت غارقًا فى هذه الخواطر حين دعانى د. (رمزى) إلى الخروج للشرفة لبعض الوقت ..

نهضنا ونهضت زوجته واتجهنا إلى الشرفة التى تطل على الحديقة المظلمة الباردة .. صقيع لكنه منعش .. والأضواء فى كل صوب ؛ لأن الليلة غير عادية كما تعرفون .. برد الإسكندرية الجميل الذى لا يوصف بكلمات ..

كانت الشرفة خالية كما لاحظتم ؛ لأنه ما من مجانين كثيرين يرغبون فى الوقوف فى الشرفة فى هذا الجو ..

لاحظت أن الشاعر يقف بالقرب منا ، ويرمق الليل فى نهم وجوع .. كأنما يختزن الطبيعة كلها داخل رئتيه وعينيه .. وسمعته يدمدم بشىء ما كالقطط التى تقر ..

قال (رمزى) وهو يتبادل مع زوجته ابتسامة خبيثة :

ـ « هذا شاعر على ما أظن .. إنك تجدهم تحت كل حجر فى هذه الأيام .. »

قلت فى توتر :

ـ « لا أدرى .. إنه يبدو شاعريًا جدًا ، فلو كان بوسع المرء أن يحكم على الناس من منظرهم ، لكان هذا الرجل هو (المتنبى) أو (ناجى) .. »

وحاولت أن أسمع ما يقول ، لكن صوته كان خفيضًا جدًا .. فى النهاية غلبنى الفضول فملت عليه وقلت بجرأة أفتقدها غالبًا :

ـ « لا أريد أن أبدو وقحًا يا سيدى .. لكن هل بوسعنا أن نسمع بعض شعرك ؟ »

نظر لى وهو لا يرانى .. نظر عبرى .. وهمس :

ـ « لن تفهمه يا سيدى .. لن تفهمه .. »

إنه وقح أيضًا .. أدرت له ظهرى وتظاهرت بأننى لم أقل له شيئًا ولم أسمع شيئًا ..

هنا بدأ ينشد الشعر كأنما قرر فجأة أننى سأفهمه :

ـ « من أجلك أنت يا سيدى ..

تعلم ثغرى فنون المديح ..

وحاربت كل الغزاة وكل القساة وكل الدعاة وكل الرعاة ..

من أجلك أنت يا سيدى ..

فهمت القصائد والأغنيات ..

وترنيمة الطير فوق الغصون ..

وهمس المنون ..

لأن الطبيعة فى ذاتها ..

هى فن من فنون المديح » ..

صفقت بكفى فى غير اقتناع .. هذا ليس شعرًا وليس نثرًا ، وهذا هو الكلام المكسور الذى يقول إننى لن أفهمه .. أتوقع فى الشعر أن يحوى بعض الموسيقا سواء موسيقا الكلمات أو موسيقا المعانى .. لكن هذا شعر جاف كالصحراء ..

وأدركت أنه يقول أى كلام حين لاحظت كيف جمع بين (رعاة) و(دعاة) و(قساة) .. ما دخل الرعاة فى الموضوع ؟ هل لو طال البيت قليلاً لأضاف (حماة) مثلاً ؟ وتذكرت بيت الشعر الحقيقى العبقرى الذى يقول :

فلكمْ ترى من صامت لك مُعْجِبٍ

فزيادتهْ أو نقصهُ بتكلُّمِ

بدأ الفتى - يا للمصيبة ! - يتحمس وراح يفتش عن قصيدة أخرى أكثر إمتاعًا ، فقررت أن أخرسه بالهجوم المباشر :

- « هل أنت شاعر بالمهنة ؟ »



بدأ الفتى - يا للمصيبة ! - يتحمس وراح يفتش عن قصيدة أخرى أكثر إمتاعًا ...

تنهد فى عمق وقال :

- « لا .. أنا من الأعيان ، ولكن الشعر استولى علىّ تمامًا إلى حد أننى لا أجد الوقت الكافى للعناية بأملاكى .. »

ثم مد يدًا سمراء نحيلة جافة ليصافحنى ، وقال :

- « أنا (مراد سليم) .. من أعيان الصعيد .. »

- « (رفعت إسماعيل) .. من مفلسى القاهرة .. »

هنا دخل الفجر والندى وهمس الورد فى الشرفة .. فعرفت أنها زوجته قد لحقت بنا .. حيتنا بهزة رأس مهذبة ، ثم دنت منه وسمعنا بشكل ما طرفًا من كلامها وإن لم نتعمد هذا ..

كانت تقول له فى صيغة لائمة :

- « إنهم استولوا على كل شىء وأنت هنا لا تفعل أى شىء .. يجب ان تكون جديرًا بالاسم الذى تحمله .. لو كان أبوك رحمه اللّه هنا ... »

قال فى ضيق ضاغطًا على مقاطع كلامه :

ـ « أنا غير أبى فى كـل شـىء .. فـى التفكـير .. فى الدين .. فى كل شـىء .. وأنـا شـاعر ولا أعتـبر نفسى مقاتلاً على الإطلاق .. لكنى أخبرت (محـب) كى يتولى الأمر .. »

قلت همسًا لدكتور (رمزى) :

ـ « كيف يكون غير أبيه فى الدين ؟ »

ـ « شششششش !! » ـ واضعًا إصبعه على شـفتيه محذرًا ـ « إن النـاس تغير دينـها أحيانًا .. »

هنا ارتجت الشرفة ؛ لأن شخصًا ضخمًا مـن تلكـم الجدران الآدمية التى شاهدت مثلها الكثير منـذ جئـت الحفل ، دخل علينا .. كان أسمر اللون عريض المنكبين تبدو بذلته كأنما ستتمزق من فرط ضغط العضلات ..

لم يلتفت شاعرنا الحالم ، وقال وهو ينظر للحديقة :

ـ « تعال يا (محـب) .. ماذا فعلت ؟ »

بصـوت غليـظ عميـق يتكلـم الأخ (محـب) الـذى لا يليق باسمه الرقيق :

- « كما قلت لى .. ذهبت إليهم وأذقتهم الويل .. لكننا ما زلنا بحاجة إليك هناك .. »

- « سأفكر فى ذلك أيها الصديق .. أين (علاء) ؟ »

- « إنه يلعب وحده .. الأطفال يموتون ضجرًا لو لم يجدوا أطفالاً مثلهم .. »

- « حسن .. تعالوا نسر عنه قليلاً .. »

وخرجت المجموعة من الشرفة .. وعدنا نتنفس بحرية وإن ارتجفنا قليلاً بفعل البرد الشديد ..

قلت وأنا أنظر من وراء كتفى :

- « ألا ترى فيهم مجموعة غريبة بعض الشىء ؟ »

قال د. (رمزى) فى ضجر ، وهو يتبادل مع زوجته نظرة ساخرة :

- « أنت اعتدت الغرابة إلى حد أنك تجدها فى ماسورة المطبخ »

بلا هزل قلت وقد أغاظنى أنه لا يرى ما أراه :

ـ « واحد من أعيان الصعيد يختلف عن أبيه فى كل شىء حتى الدين ، وهناك من يستولون على ثروته بينما هو غارق فى نظم الشعر .. زوجة بارعة الحسن لكن علاقتهما ليست على ما يرام .. أمٌّ ، تسيطر عليه تمامًا كما لاحظت أنا ، ورجل يشبه جبل المقطم هو الذى يأتى له بحقه .. فلتقطع ذراعى إن لم يكن صديقه القوى هذا يمرح فى أملاكه .. ولربما كانت الزوجة تحبه .. »

صاح وهو يضرب كفًّا بكف :

ـ « (رفعت) !! أنت تشاهد الكثير من أفلام (ستيفان روستى) مؤخرًا .. هذا هو الواقع يا صديقى حيث لا تحدث أشياء كهذه .. »

ـ « نعم هذا هو الواقع .. لهذا أندهش لحدوث أشياء كهذه .. »

تجمدت مدام (مارى) تقريبًا برغم أنها ضمت شالها على جسدها ، فأعلنت أنها راغبة فى العودة إلى الداخل .. كالعادة أعلنا أننا سنفعل الشىء ذاته .

وفى الداخل كان المهرجان مستمرًّا ...

* * *

الآن كانت هناك فرقة باليه تتكون من فتيات لم أر أرشق منهن ولا أخف حركة .. وكن يرقصن على موسيقا خفيفة جدًا لا تتجاوز نقرات على الطبل و (نغبشة) على الوتريات .. وكان الكل يتابع الرقص باهتمام ، بينما خطر لى أن د. (سامى) لا يفتقر إلى الثراء فعلاً .. هذا حفل كامل بفقرات متنوعة لابد أنها كلفته مالاً ..

وجدت د. (سامى) جوارى ينظر فى ذهول لكل هذا .. سألته باسمًا :

– « من أين جئت بهؤلاء ؟ لم أعرف أنك بهذا الثراء .. »

نظر لى بعينين لا تريان وقال :

– « أقسم إننى لم أحضر هؤلاء .. »

– « يا سلام ! كانت هاته الراقصات مارات فى الشارع حين ... »

ـ « كـلا .. هنـاك (عبـاس) .. لقد وعدنى بأن يرتب بعض الفقرات الترفيهية ، ولم أعـرف أنـه سيحول دارى إلى ناد ليلى .. تبًا لك يا (عباس) !! لو رأيته سأحوله إلى سجادة »

إذن هناك (عباس) وقد خدعه .. فهمت الآن ..

ـ « على كل حال هذا باليه .. ليس الأمر بهذا السوء .. »

الكل يتابع أما أنا فابتعدت ، لأننى رأيت وجوه الرجال جاحظة العيون ، فكرهت أن يكون وجهى وجهًا من هذه الوجوه ..

لقد بدأت أشعر أن الأمسية ستكون طويلة جدًا .. أنا مشتاق لفراشى فعلاً .. تبًا لك يا (بيزارو) .. لو لم تكن يدك تبحث عنى الآن ، لكان بوسعى أن أبيت فى بيتى وأشرب بعض الشيكولاتة الساخنة فى الفراش ، مع كتاب عن الأشباح .. لكنك حكمت على بالنفى فلن أرى شقتى العزيزة إلا غدًا ..

أخيرًا وجدت العجوز الكئيب الذى يناسب حالتى ..

كان جالسًا على أريكة فى ركن المكان يشرب بعض السحلب لا أدرى من أين جاء به .. وكان مغضن الوجه كالتفاحة الذابلة ..

حييته وجلست على الأريكة جواره .. فمضغ تلك الأشياء التى تملأ السحلب ولا تعرف إن كانت زبيبًا أم ضفادع صغيرة .. وقال لى بصوت واهن لكنه آمر متسلط :

- « هل أنت من (الزقازيق) ؟ »

لا أدرى إن كانت الزقازيق تطل من عينى ، لكنى هززت رأسى فى رفق وقلت :

- « (كفر بدر) .. قريبة جدًّا من (فاقوس) .. »

- « آآآآآآآآآآه ! »

قالها كأنما أضأت له ألغاز الكون كلها مرة واحدة ، وعاد يمضغ الأشياء الغامضة دون أن ينظر لى .. يمضغها بطاقم أسنانه على الأرجح .. بعد قليل عاد يسألنى :

- « ما أسعار المدافن عندكم ؟ »

الأمر الذى وجدته غريبًا مع أول فرصة للتعارف .. لكنى أعرف هؤلاء الشيوخ جيدًا .. يتكلمون عن القبر والموت كأنما يتكلمون عن (ديزنى لاند) .. هذه متعتهم الوحيدة فى الحياة .. وبشكل ما أنا أفهمه ..

قلت له وأنا أبتسم برغمى :

ـ « لا أعرف .. إن مدافن أسرتنا موجودة وجاهزة لاستقبالى إن شاء اللَّه .. »

ـ « غير مأمونة .. »

ووضع القدح فى الطبق بعصبية ، وعاد يكرر :

ـ « غير مأمونة .. أنا أعرف هذا وأعنيه .. لقد أعددت لنفسى مدفنًا لا يستطيع الجان اقتحامه .. ما هى مهنتك ؟ »

ـ « طـ .. طبيب .. »

ـ « قلت من أين ؟ »

ـ « (كفر بدر) .. قريبة جدًا من (فاقوس) .. »

ـ « آه ! أنت كنت فى الكلية وُدرست العظام الآدمية .. من أين تعتقد أنهم جاءوك بها ؟ طبعًا من قبرك أو قبرى .. هؤلاء اللحادون لصوص مقابر بالفطرة ، ولا يراعِون حرمة شىء .. أنا دفنت والدتى رحمها اللَّـه ثم اكتشفت أن هناك من عبث بعظامها .. تصور هذا ! حتى فى القبر هناك من يفتش جيوبك لينشلها .. »

كان الآن قد صار غاضبًا جدًّا .. غاضبًا بحق ، وراح السحلب يتطاير من فمه على ثيابى .. فلو أنك كنت تقف قريبًا لخيل إليك أننى المقصود بكل هذا الصراخ والغضب .. موقف سخيف لكنه لا يستحق السرد ..

ألم أعدكم أن تكون أسطورة مملة ؟

* * *

٣ ـ الراقصة والكهل ..

لمدة عشر دقائق ظل (عزمى) بك ـ كما قال إنهم ينادونه ـ يحكى لى عن جمال وروعة وأناقة وأمان مدفنه الجديد ، حتى إننى لم أعد متأكدًا مما إذا كان يتحدث عن دفنه أم عن زواجه .. لقد مررت بذات الموقف مرارًا من قبل وأنا أفهمه ؛ لأن الشيوخ ـ كما قلت ـ لا يعدون الموت موتًا ولكن مرحلة جديدة فى حياتهم ..

فى النهاية رأيت الدكتور (سامى) مارًّا وهو يمازح هذا ويداعب ذلك ، فهرعت ـ بعد استئذان معذبى ـ ألحق به ، وقلت له إننى ـ (أبوس إيدك) ـ راغب فى الانصراف الآن ..

قال فى عدم تصديق :

ـ « ليس قبل منتصف الليل يا (رفعت) .. هذا فأل سيئ كما تعلم .. »

ـ « هذه الأشياء لا تنطبق على .. »

قال فى غموض وهو ينظر للجهة الأخرى :

ـ « أرجوك أن تبقى .. فعلاً هنـاك أشـياء غريبـة أحتاج إلى رأيك فيها .. »

ـ « مثل ... »

ـ « فقط صدقنى .. هذا رجاء .. »

ـ « ولكن ... »

ـ « مهندس (فاروق) !! »

هذه لم تكن ضمن المحادثة طبعًا ، وإنما هو لمـح المـهندس المذكور فهرع يلحق به .. وهذا شأنه منـذ بدايـة الحفـل أشـبه بـ (الحنكليس) ـ الـذى لا أعـرف ما هو ـ لا تمسك به بضع ثوان حتى ينسل من يـدك إلى مكان آخر(*) ..

(*) الحنكليس هو ثعبان الماء ، لكن (رفعت) لا يعرف !

هنا رأيت أن الناس يلتفون حول المكان الذى تحول إلى مسرح قاعة الجلوس هذه .. دخلت راقصتان من تلكم الفتيات الرشيقات تحمل كل منهما طرف بساط كبير ملفوف حول نفسه ..

ما معنى هذا ؟ هل مات أحد ؟

تنحت الراقصتان جانبًا بحركة مدروسة ، بعد أن وضعتا البساط على الأرض ، فدار البساط حول نفسه .. وسرعان ما خرجت منه فتاة .. مثلما يفعلون فى حفلات المفاجآت فى الغرب حين تخرج من التورتة راقصة أو قاتل يحمل الكلاشنكوف فى أفلام العصابات .. يبدو أن الأخ (عباس) أعد هذا أيضًا ..

بدأت الفتاة ترقص يمينًا ويسارًا بحركات رشيقة غريبة تذكرك بالباليه أو الجمباز الإيقاعى ..

هل أقول إنها كانت أروع من رأيت فى حياتى ؟ لقد صار هذا مملاً .. إما أننى أهذى وإما أن هذا الحفل يضم أجمل مجموعة من الفتيات وقعت عليهن عينى فى حياتى ..

لو دققت النظر أكثر لرأيت أنها ليست جميلة على الإطلاق .. لكنها ساحرة .. رشاقة وخفة حركتها والشخصية القوية المطلة من عينيها تعطى الإيحاء بالجمال دون أن تكون كذلك ..

طالت الرقصة وكالعادة حرصت ألا أتابعها لكن شيئًا ما وقع فى نفسى .. لقد نثرت تلكم الساحرة بذور سحرها فى روحى فشعرت كأنما أنا مراهق فى الرابعة عشر من عمره ..

أخيرًا انتهت .. لا كما تنتهى الموسيقا تدريجيًا ولكن مرة واحدة ..

ومن مكان ما سمعت د. (سامى) يصيح :

ـ «(عباس) أيها الوغد !! أقسم باللَّه لو رأيتك ...»

ورأيت الراقصة تخطر على قدميها الدقيقتين وهى تتمايل نازلة من على المسرح المرتجل .. وسمعت تصفيقًا أكثر حرارة من المعتاد ..

كان صاحب التصفيق واحدًا من هؤلاء الكهول الذين لم يتخلصوا من مراهقتهم بعد ، ولا أتكلم عن نفسى طبعًا .. كان رجلاً متأنقًا ــ ضخمًا قويًا فيه مهابة وقوة شخصية غير عاديتين .. إما أنه أجنبى أو هو مصرى أبيض البشرة أزرق العينين .. ورأيت الفتاة تهرع له لتجلس جواره ، وسمعتهما يضحكان .. لقد استولت على عقله بالكامل ..

قال واحد جوارى لصاحبه :

ـ « الخواجة (باولو) قد وقع فى الحب .. هذا واضح ! »

ـ « لو عرفت زوجته لحدثت كارثة .. »

ـ « أعتقد أنها تعرف .. لكن لحسن الحظ أنها ليست هنا .. »

(باولو) ؟ إذن هذا الأحمق إيطالى على الأرجح .. كان يكلمها بحماس ويحكى لها عن أشياء ، ولا أدرى ما هى اللغة التى يستعملها لكن هناك عددًا لا بأس به

من الإيطـاليين فـى مصـر علـى كل حـال ، أكـثرهم يتكلـم العربية بطلاقة .. وقـد قـابلت مـن هـؤلاء الكثـير فـى المنصورة فى صباى ..

من جديد مر د. (سامى) أمامى وهو يلعب دور المضيف الذى يشعل أنامله كالشمع من أجل ضيوفه ، فجذبته من كمه وأشرت إلى الجالسين :

ـ « من هذا ؟ومن هذه ؟ »

نظر إلى حيث أشرت بعينين لا تريان ، قـال وهـو يجذب كمه :

ـ « علمى علمك .. »

ـ « يا سلام ؟ هـذه دارك إن لـم تكـن الذاكـرة قـد خانتنى .. »

ـ « أنـت تعرف هذه الحفلات ، أو ـ بـعبارة أدق ـ لاتعرف هذه الحفلات .. يقول رب البيت العربى لطاهيه : زد فى كل شىء ، فقد يجىء من نريد ومن لانريد .. »

ـ « أنا لا أقابل إلا من لاتريد .. »

ـ « مـادمت مستعدًا ، ومـاداموا أشخاصًا راقين مهذبين فلن أطرد أحدًا .. إنهم على شئ من الخبل وغرابة الأطوار لكن هذا ليس سببًا كافيًا كى ..... »

ثم هتف وهو ينسل من يدى :

ـ « أستاذ (نيازى) !! »

لن أظفر من هذا الرجل بشئ هذه الليلة ، فهو فى غيبوبة تامة على ما يبدو ، ولن ألومه .. أنا لا أتصور أن أجد نفسى فى هذا الكابوس وأكون مسئولاً عنه .. لو فعلت هذا لتسللت إلى الحمام لأصاب بنوبة قلبية وأموت ..

اتجهت إلى المائدة التى رصت عليها أصناف لا أعرف إن كانت تؤكل أم تستخدم كأجهزة تعويضية ، والتى وقف جوارها شاب يرتدى سترة أرجوانية ، يبتسم بلطف مصطنع ، وقد وضع يده اليسرى خلف ظهره ليوحى بأن الخدمة ممتازة .. ابتسمت له فى سماجة ورحت أرص بعض الأشياء فى طبقى ..

شعرت بالهواء والنور ينقطع من يسارى ، فنظرت لأرى جدارًا أسمر من لحم وعضلات ..

الفتى أنيق .. هذا حق ، لكن قامته الفارعة المفزعة تجعلك تنسى ما يلبسه .. وكان يقف جوار امرأة فى منتصف العمر بادية السيطرة ، على قدر من الجمال ، وقد بدا أن بينهما مناقشة ساخنة بحق .. كانت تحاول إقناعه بشىء ، وهو ينفخ فى ضجر ..

ـ « يا حبيبى أنت لاينقصك شىء .. الأمور مستقرة وكل شىء على ما يرام .. »

ـ « هذا ما تقولين أنت ! »

ـ « يمكننا التفاهم معهم .. كل شىء يمكن أن ... »

ضرب الأرض بقدمه فى غيظ ، وهتف :

ـ « أوف ! هذا هو كل ما يمكن للمرء أن يظفر به من آراء النساء .. فى حين لا يحترم الناس إلا من يخافونه .. »

قالت فى حزم وهى تضغط على كلمتها :

ـ « (أكرم) .. لقد قلت كلماتى وعليك أن تطيع .. إن زوجة أبيك هى بمثابة أمك .. لقد انتهت هذه المناقشة .. »

فى عصبية ألقى الطبق الذى كان فى يده على المنضدة ، وابتعد غاضبًا ، ويبدو أن الإهانة التى تلقاها أمامنا جعلته لايتحمل المزيد .. هذا رجل قصير الفتيل ، ومن حسن حظها أنها زوجة أبيه وأنها أنثى وإلا لهشم رأسها ..

نظرت المرأة لى وللشاب المسئول عن البوفيه ، وتساءلت فى سرها إن كنا تابعنا ما حدث ، لكن عيوننا قالت بوضوح إننا تابعنا ..

راحت تملأ طبقها فى عصبية ، وهى تقول كأنما تكلم نفسها :

ـ « إنه شاب متحمس .. جامح كالحصان .. لقد صار ضابطًا فى الجيش ، ويبدو أنه تعلم أن القوة هى الأساس الوحيد لأى تعامل .. إن التفاهم مع الشباب يكون مستحيلاً أحيانًا .. »

ابتسمت وقلت مجاملاً :

ـ « سيدتى .. لا أرى أنك ابتعدت عن الشباب كثيرًا »

ابتسمت بدورها واحمر خداها قليلاً :

- « بل ابتعدت بأعوام .. الحقيقة إن السيطرة على الأمور صعبة بالنسبة لى كامرأة .. إن لى أعداء كثيرين ، وأولهم هذا الشاب ، وإننى لأجد نفسى أحيانًا مضطرة إلى لعب دور الرجل كى أقنعهم .. إنهم يعتقدون أن المرأة خصم سهل .. وقد بدأت أجاريهم هذا الاعتقاد .. »

ومدت يدها فى حقيبة يدها وأخرجت علبة تبغ وأشعلت لنفسها لفافة .. فهمت .. لكن لو كانت تعتقد أن التدخين يجعلها من الرجال فهى مخطئة .. الصبى يبدأ التدخين ليشعر بأنه رجل ، والبالغ مثلى يحاول الإقلاع عن التدخين ليشعر بأنه رجل !

ثم مدت يدها لى مصافحة :

- « مدام (سلوى الصباغ) .. أما هذا الشاب الثائر فهو (أكرم) ابن زوجى »

كانت قبضتها قوية كالرجال تمامًا .. حاولت جاهدًا أن أتماسك أمامها وقلت فى كياسة :

ـ « د. (رفعت إسماعيل) .. »

ـ « أنت مجامل يا دكتور (رفعت) .. وأنا أقدر هذا فى الرجل .. »

ابتعدت فتبادلت مع مسئول البوفيه ابتسامة ذات معنى .. ثم حملت طبقى وابتعدت .. يبدو لى أن هذا الحفل شبيه بأوبرات فقاقيع الصابون التلفزيونية الأمريكية المعروفة .. لا شىء يحدث .. لكنهم مجموعة من الأشخاص بمشاكل عائلية معينة ، وصراعات ناشئة عن هذه المشاكل .. وفى كل لحظة يحتل الكادر اثنان من هؤلاء ليؤديا دورًا قصيرًا .. والأوبرا بهذا الشكل لن تنتهى ولا يمكن أن تنتهى .. كلما ماتت الرغوة وضع المؤلف يده فى طبق الصابون ؛ ليحرك الماء قليلاً ومن ثم تولد فقاقيع جديدة ..

لكنى لا أنكر أن متابعة هذا مسل نوعًا ، وقد بدأت أفهم لماذا يحب الناس هذه الأشياء ...

بطرف عينى أرى الخواجة الإيطالى (باولو) يغادر القاعة ، بينما تجلس الراقصة الحسناء على الأريكة تنتظره ، وراحت ترمق الحفل بعينين نجلاوين لا يمكن أن يفوتك ما فيهما من ذكاء عبقرى .. القصة واضحة إذن .. إنها تبحث عن ثرى تخدعه وتسلبه ما معه من مال .. كان الإيطالى أحمق وقد وقع فى الشرك ، فمن بعد هذا ؟ لحسن الحظ أنه ليس أنا ..

يبدو أنه أنا !!

لقد نهضت لتعبر القاعة ببراعة غير مصطدمة بأى واحد من المتزاحمين ، حتى وصلت إلى الأريكة التى أجلس عليها .. كان فمى مليئًا بالطعام ، فما إن رأيتها حتى غصصت بما فى فمى ، كأننى رأيت الطاعون ذاته أمامى ..

ضحكت قليلاً وقالت :

ـ « ماذا حدث ؟ أنت لم تر عفريتًا .. »

بذوقى ولباقتى المعهودتين قلت :

ـ « بل ما هو أسوأ .. »

ـ « لا بأس .. اسمى (كاتيا) .. هل معك ثقاب ؟ »

ـ « لا .. »

كانت معى قداحة ، لكنها لم تسألنى عن نار .. سألتْ عن ثقاب ..

ـ « ولن تدعونى للجلوس ؟ »

ـ « أنا لا أملك المنزل لهذا أرجوك أن تتفضلى .. »

جلستْ وهى ما زالت حائرة بصدد إشعال لفافة التبغ التى تحملها ، لكن من يجيدون هذه الأشياء كثيرون لحسن حظها ، وقد تقدم أحد الشباب فى حماس



كانت معى قداحة ، لكنها لم تسألنى عن نار .. سألت عن ثقاب ..

- «ولن تدعونى للجلوس ؟» .

ليدنى قداحته من طرف لفافة تبغها ، فانبعث دخان كثيف وأهدته ابتسامة شاكرة .. ثم قالت لى :

ـ « أنت متضايق من وجودى .. أليس كذلك ؟ »

لم أعلق وواصلت الأكل محاولاً أن أستعيد متعتى الأولى .. لكن هيهات .. لا أحد يأكل بينما هناك من يراقبه بهذا الفضول ..

ـ « لك الحق .. لابد أنك سمعت ما يقال عنى .. هناك من يعتقدون أننى فتاة لعوب ، لكن المرأة قد تضطر لهذا لتحمى نفسها .. أنت تفهمنى .. أليس كذلك ؟ »

ـ « نعم .. لا أفهم .. »

ـ « المرأة لا تملك عضلات ولا تجيد استعمال السلاح .. المرأة لا تستطيع السيطرة على (الأبضايات) .. لهذا تملك المرأة سلاحًا واحدًا فتاكًا هو ذكاؤها .. هو جمالها .. وأنا أستعمل هذا السلاح

لأحمى من أحبهم وأخاف عليهم .. وهذا الـ (باولو) يستطيع أن يؤذينى ويؤذى أحبائى بشدة لو أراد ، لهذا جعلته لا يستطيع أن يستغنى عنى .. إنه الآن رهن إشارتى يفعل كما آمره بالضبط .. وهو يلاقى لهذا الأمرين من زوجته ومن أهله .. لكن خمر الحب قد أسكرته فلا فكاك له .. »

شعرت برعب من هذه الكلمات .. لماذا تطلب منى هذه المرأة أن أتفهم موقفها ؟ أنا لست حكمًا ولست أباها ولا أخاها ولا زوجها ولا ابنها .. ثم لماذا تصارحنى بهذه الأسرار من أول مرة ترانى فيها ؟

طعم لحم الديك الذى أمضغه يوشك أن يتحول إلى لحم ظربان .. هذا الحفل يعج بالمجانين من دون شك ..

مر ساق يحمل بعض الكئوس التى تحوى عصير البرتقال .. فاستوقفته حتى كدت أسقطه على الأرض ، وجذبت كأسين قدمت لها واحدًا وواحدًا لى ..

تشممتْ الكأس لحظة ثم سألته :

ـ « عصير برتقال .. هل لديكم شىء أقوى ؟ هل لديكم (حنقت) ؟ »

صاح الفتى فى غباء :

ـ « (حنقت) ؟ »

هنا ضربت المرأة رأسها وضحكت فى دلال :

ـ « ما أغبانى .. نسيت اسم ذلك المشروب اللذيذ .. ليكن .. ليكن .. سأكتفى بهذا .. ميرسى .. »

وقبل أن أعلق جاء الدكتور (سامى) يهرول نحوى ووجهه ممتقع كالموتى .. وكان د. (رمزى) يتبعه وفى حالة ليست أفضل ..

هذه أشياء تحدث ..

ألم أعدكم أن تكون أسطورة مملة ؟

★ ★ ★

٤ ـ فلنحتفظ بالهدوء ..

مال على أذنى وهمس :

ـ « حاول ألا تحدث جلبة .. أريدك معى فى الخارج »

ورفع وجهه إلى (كاتيا) وضحك ضحكة مفتعلة دبلوماسية ، فنهضت معه وأنا أكره أنَ أترك ما تبقى فى طبقى الملىء ..

كما هو طبيعى هرعنا إلى الخارج ، ونزلنا بضع درجات .. إلى حديقة الفيلا التى تحولت إلى بقعة من النور كأنها مدينة الأحلام .. التماثيل الرومانية فى كل صوب تجعلك تشعر كأن هذه حديقة قصر ، وعبير الأشجار التى تهمس بأسرارها فى خجل من فرط برد ديسمبر .. كنا الآن ستة رجال لا أعرف اثنين منهم ، وكنا نجد السير خلف د. (سامى) الذى كان أكثرنا لياقة ..

أخيرًا كان هناك تمثال جميل لـ (بومبيى) سلط الضوء من أسفل على وجهه ليبدو رهيبًا .. وركع (سامى) على ركبته أسفل التمثال وهتف بنا أن ننظر ..

حقًا كان هناك ما يستحق النظر .. كانت هناك جثة .. والجثة كانت لرجل غارق فى الدماء ..

هكذا وجدت أن على أن (أعمل منظر) كما يقولون ، وأزحت الرجال جانبًا باعتبارى الطبيب الوحيد هنا .. وشدهت إذ أدركت أن الميت هو الإيطالى الذى كان فى الحفل منذ دقائق .. فى ذكاء قلت لهم :

ـ « لقد مات .. »

ـ « أنت عبقرى إذن .. »

هذا الرجل الذى كان يهز الأرض مهابة وقوة برغم سنه المتقدمة ، تحول بعد دقائق إلى خبر فى صفحة الوفيات وربما الحوادث .. ترى أية عواطف كانت تختلج فى قلبه وهو يعبر الحديقة ثملاً بالحب من

دون طلا ، وهو لا يعرف أنه سيتحول بعد دقيقة إلى (عاو) يخيفون به الأطفال ؟

كانت هناك جروح غائرة كثيرة فى صدره وبطنه .. واضح أنه طعن طعنًا حتى الموت .. من فعل هذا وكيف ؟

كان د. (سامى) يضرب كفًا بكف وهو يوشك على العويل :

ـ « لقد انتهى أمرى .. جريمة قتل فى بيتى ؟ فى حديقتى ؟ »

سأله (رمزى) فى هدوء من يداه فى الماء البارد :

ـ « هل تعرفه ؟ »

ـ « بالطبع لا .. لا أدرى من أين تأتى هذه الوجوه .. »

قلت لهم :

ـ « اسمه (باولو) .. وهو غير عربى .. ربما كان إيطاليًا .. »



كانت هناك جروح غائرة كثيرة فى صدره وبطنه .. واضح أنه طعن طعنًا حتى الموت ..

عاد (رمزى) يسأل :

- « وهل تعرف من فعل هذا ؟ »

قال أحد الرجلين الواقفين اللذين لا أعرفهما :

- « أنا رأيت المشهد من بعيد .. كان يمشى وحده فى الحديقة شاردًا عندما مر جوار هذا التمثال ، وفجأة برز له من ورائه عدد من الرجال لايقل عن خمسة وانهالوا عليه طعنًا .. كان يقول شيئًا ما ، لكنهم لم يمنحوه فرصة .. جريت مبتعدًا لأحضر نجدة وحين عدت لم أجد أحدهم .. »

- « كارثة ! فضيحة ! »

كان (سامى) يفقد وقاره بسرعة .. وأدركت أنه حتى هؤلاء السادة يمكن أن يضطربوا ..

قلت له فى شىء من الحزم :

- « لا داعى لإضاعة الوقت .. هلا طلبت الشرطة ؟ »

- « الشرطة ! فى بيتى ! يا لها من فضيحة ! »

نهضت وأنا أتأمل الجثة الغارقة فى الدماء الممتدة على الأرض فى الظلام .. هذه جريمة غريبة تنم عن حقد بالغ .. كانت تكفيه طعنة واحدة .. بل إنه ليكفيه أن يقال له (بخ) فهذا كان كفيلاً بالقضاء على قلبه ..

هنا فعل د. (سامى) آخر شىء تصورته .. جذب ذراعى وقال بلهجة من يدعونا للتعقل :

ـ « سنبلغ الشرطة .. لكنى لا أرى أن أفسد الحفل بهذه السرعة .. لقد تعبت أنا و(ثريا) كثيرًا فى الإعداد له ، ولا أريد أن يمتلئ المكان بخبراء البصمات ، ورجال النيابة يسألون كل واحد من ضيوفى عن علاقته بالمتوفى .. سننتظر حتى ينتصف الليل ويبدأ العام الجديد .. كم ساعتك الآن ؟ »

نظرت لساعتى وغمغمت فى عدم رضا :

ـ « العاشرة والنصف .. لكن .. »

- « ساعة ونصف لا أكثر .. فقط ساعة ونصف .. دع هؤلاء الضيوف يمرحوا ويستمتعوا بوقتهم ، ثم نطلب الشرطة فى الثانية عشرة .. دعنا نفترض أننا لم نر الجثة الآن .. »

قال د. (رمزى) فى تفكير :

- « حقًا لا أرى ما يمنع من .... »

صعد الدم إلى رأسى فصحت فى غيظ :

- « هل جننتم ؟ تتركون القتلة يفرون فى هذا الوقت ، ولربما جعل البرد تحديد وقت الوفاة مستحيلاً .. على كل من يجد جثة أن يبلغ الشرطة حالاً .. هذا هو مفهومى عن المواطن الصالح .. »

قال أحد الرجلين الآخرين :

- « لو فكرت فى الأمر دون تعصب يا دكتور (رفعت) لوجدت أن د. (سامى) لا يطلب شيئًا قاسيًا أو مستحيلاً.. إنه يريد أن يطيل لحظات سعادة ضيوفه لا أكثر .. »

- « دعهم يصابوا بالذعر .. دعهم يموتوا خوفًا فقد مرحوا بما يكفى .. »

قال الرجل الآخر :

ـ « ويمكن من هذه اللحظة أن نغلق أبواب الفيلا فلا يسمح لأى كان بمغادرتها .. بهذا أنت واثق من أن من فعلها فى قبضتك .. ونحن جميعًا شهود على حالة الجثة وساعة الجريمة .. »

ـ « أنت تبالغون فى موضوع راحة الضيوف هذا .. »

هنا قال لى د. (رمزى) موبخًا :

ـ « الرجل لا يرغب إلا فى تأجيل الفضيحة والضوضاء إلى ما بعد منتصف الليل .. أنت لا تهتم بالحفلات وتريد عمل أى شىء كى يتحول هذا المكان إلى مذبحة .. بصراحة لا أرى أنه يطلب المستحيل .. »

هنا قررت أن أصمت ما دمت أبدو الأحمق المتعصب الوحيد وسط هؤلاء السادة الراقين .. على كل حال الدار دار (سامى) والمشكلة مشكلته والجثة جثته إن صح التعبير .. أعتقد أنه يرتكب خطأ قانونيًا جسيمًا ..

ـ « لكننا لن نتركه راقدًا هنا لمجرد ألا نفسد صفاء ضيوفك .. »

أشار د. (سامى) إلى غرفة صغيرة بين الشجيرات

بدت كأنما مخصصة كمخزن أو مسكن بـواب صغير الحجم أو كلب عملاق .. وقال :

- « سنضعه هناك ، ثم نعود متظاهرين بالسعادة .. بعد منتصف الليل يمكن لنا أن نملأ الدنيا صراخًا ونلطم الخدود إذا كنت تريد هذا .. واسمحوا لـى أن أعدل عن موضوع غلق أبواب الفيلا هذا لأنه يبدو غريبًا »

ثم تنهد وقال فى حسرة :

- « فقط لو عرفت فى أية داهية ذهب (عباس) .. إنه يفهم فى هذه الأمور .. »

داهية ؟ لقد تقدم الرجل الراقى المهذب كثيرًا وصار يستعمل ألفاظًا سوقية .. ربما لو طالت الأمسية ومع قتيل آخر ، يبدأ فى استعمال السباب .. وهكذا تعاون الأربعة رجال على حمل الفقيد الذى لم يكن خفيف الوزن بالتأكيد .. كانت الحجرة ضيقة فيها فراش صغير ومن دون ضوء .. تعاونوا على إرقاد الرجل على الفراش ، ووضع د. (سامى) ملاءة كانت هناك على وجهه ..

وهكذا عدنا للحفل وبراءة الأطفال فى عيوننا ، وإن شرخ هدوءنا النفسى تمامًا التفكير فى أن جريمة

قتل بشعة حدثت على بعد خطوات منا .. لقد كف د. (سامى) عن أن يكون مرحًا ، وبدا شارد الذهن متوترًا ، وكذا كان د. (رمزى) الذى جلس جوار زوجته على الأريكة ، وراح يلوك ما فى طبقه من طعام شارد الذهن ..

أين (كاتيا) ؟ ماذا لو عرفت ما حدث للرجل الذى تتودد له تملقًا ومداهنة ؟

ترى هل لها دور فى موته ؟ من الواضح أنها لم تفعل .. لديها حجة الغياب أو ما يسميها الفرنجة باسم Alibi .. فهل من فعل ذلك يمت لها بصلة ؟

* * *

« المرأة لا تملك عضلات ولا تجيد استعمال السلاح .. المرأة لا تستطيع السيطرة على (الأبضايات) .. لهذا تملك المرأة سلاحًا واحدًا فتاكًا هو ذكاؤها .. هو جمالها .. وأنا أستعمل هذا السلاح لأحمى من أحبهم وأخاف عليهم .. وهذا الـ (باولو) يستطيع

أن يؤذينى ويؤذى أحبائى بشدة لو أراد ، لهذا جعلته لا يستطيع أن يستغنى عنى .. إنه الآن رهن إشارتى يفعل كما آمره بالضبط .. وهو يلاقى لهذا الأمرين من زوجته ومن أهله .. لكن خمر الحب قد أسكرته فلا فكاك له .. »

* * *

كلامها لا يوحى بأنها يمكن أن تقتله .. لقد ادخرت له مصيرًا أسوأ هو دور العجوز الأبله المفتون بصبية من عمر بناته .. إذن من فعلها ؟

هذا الحفل غريب حقًّا ..

وبحثت عنها فوجدتها قد عثرت على صيد جديد .. هذه المرأة لا تضيع وقتها أبدًا .. لكن الفريسة هذه المرة كان شابًّا وسيمًا قويًّا له مظهر عسكرى صريح ، وكالعادة لم يبد لى ذا ملامح مصرية .. وكان يجلس فى كبرياء ووقار ، ويتبادل معها الكلام بينما هى تضحك .. تتراجع للوراء .. تغمض عينيها ..

تفتحهما .. تلوح بيدها .. تقهقه .. تبتسم .. تنهدت وقلت لنفسى إن للجمال هيبة .. لقد تلاعبت من دقائق بكهل إيطالى ثرى ، والآن تتلاعب بشاب قوى يمكنه أن يهشم عنقها بيد واحدة لو كان القتال بأسلحة متكافئة ..

ولكن ما موضوع هؤلاء الأجانب ؟ هل هذا الشاب هو الآخر ضمن من يمكن أن يؤذوها لو لم تحسن استخدام أسلحتها ؟ إذن كل أعدائها أجانب ؟ ما معنى هذا ؟

هنا تكفل ذلك الأخ الثرثار الذى يتكلم جوارى طيلة الوقت بأن قال لصاحبه :

ـ « ها هى ذى تحاول إيقاع (ماريو) فى حبائلها .. »

ـ « ومن الواضح أنه وقع مثل (باولو) .. »

فجأة صفر الأول وهو يشير إلى باب القاعة :

ـ « هل ترى ما أراه ؟ »

على الباب وقف شاب أجنبى المظهر ـ هو الآخر ـ نحيل القوام عصبى لا يوحى بأنه قط وديع .. كان يضع يديه فى جيبى سترته السوداء ، ويرمق المشهد وقد تعاقبت على وجهه ألوان الطيف كلها ثم استقرت عند الأحمر ..

قال الثرثار :

ـ « هذا أخو زوجة (ماريو) .. إنه (أندريو كوزاليونى) .. لقد وقع (ماريو) فى شر أعماله فهذا الفتى لا يمزح .. إنه من أسرة عريقة أرستقراطية ولن يسمح بهذه الإهانة لأخته .. »

ـ « ربما يطلق الرصاص عليه .. »

ـ « لا .. لن يؤذى أخته بهذه السهولة .. أعتقد أنه سيستشيرها أولاً »

كنت أنا ـ فى عقلى ـ أضرب كفًا بكف .. زواج وطلاق وقتل وخيانات زوجية وزوجات غيورات .. ما هذا المهرجان ؟ كل هذا فى مكان واحد وفى ساعة واحدة ؟

وبدأ (الفأر يلعب فى عبى) إن سمحتم لى بالتعبير ..

هذه دعابة .. د. (سامى) يقـدم لنـا أغرب فقـرة ترفيه يمكن أن تخطر ببال أحد ، أو ربمـا هـى لعبـة نفسـية مـا .. إنـه يقيس اسـتجاباتنا .. يقولـون إن الطبيب النفسى هو الذى إذا دخلت المكان فتاة حسـناء استدار ليرمـق الجالسين مـن حـوله .. عيـن الطبيب النفسى كالضمير تراقب خلجاتنا وانفعالاتنا .. ربما هو يعد لدراسة اسمها (الاستجابات المتباينـة لمجموعـة غير متجانسـة تجـاه المشـاكل العاطفيـة والأسـرية للآخرين) .. لم لا ؟

ألم أعدكم أن تكون أسطورة مملة ؟

* * *

٥ – مشكلة قانونية ولعبة سحرية ..

بحثت عن د. (سامى) لأخبره أننى ببساطة قد فهمت دعابته .. رحت أشق طريقى بين زحام المحتفلين ذوى الطراطير الذين انغمسوا فى الطعام والشراب .. وعلى المسرح المرتجل ظهرت مطربة نحيلة سمراء ابتسمت فى رقة ، وبدأت الفرقة المكونة من عازفين تعزف تلك الموسيقا الغريبة البسيطة ..

« واحسرتاه على حبيب قد نسانى للأبد ..

« قد كان لى كل الوجود .. وكان عنوان الأبد ..

« لما حرقت شذى البخور عليه .. لم يعرف أحد .. »

ما هذا الكلام ؟؟

لا بأس باللحن وبصوتها على الإطلاق .. لكن هذه الكلمات ؟ إنها لا تمت لمفهوم كلمات الأغنية كما أعرفها ،

وعامة هى لا تناسب هذا الحفل .. لكن يبدو أنها رائعة لأن إحدى السيدات أطلقت صرخة لوعة ، ونهض رجل أسمر فارع القامة ملوحًا كأنه يستمع لإحدى أغنيات (الست أم كلثوم) ..

والفتاة تواصل الغناء بصوتها الساحر .. يبدو أن (عباس) هو كاتب الكلمات أيضًا ..

كنت أبحث عن د. (سامى) حين استوقفتنى صيحة تدعونى .. كانت هذه مدام (ثريا) زوجته التى جلست على أريكة واسعة جوار سيدة عجوز وشاب مفتول العضلات من الطراز المتحمس إياه .. وكان هناك رجل قصير القامة مسرور من نفسه ، من الطراز ذى العوينات الغليظة حتى تشعر كأن عينيه ضفدعتان محفوظتان فى مرطبانين بمعرض كلية العلوم ..

قالت بعد أن قدمتنى لهم :

ـ « مدام (نجوى كاظم) وابنها (شريف) .. وطبعًا هذا الأستاذ (بدر الصواف) المحامى المعروف .. »

طبعًا لم أكن قد سمعت حرفًا عن الأستاذ (بدر الصواف) المحامى المعروف .. لكننى تظاهرت بأننى مذهول للقائه أخيرًا بعد كل ما سمعته ..

- « اجلس .. »

فجلست أنا التعس البائس .. لا أدرى لماذا بدأت أشعر أن يد (بيزارو) ليست بهذا السوء ..

قالت لى مدام (ثريا) :

- « تصور .. إن مدام (نجوى) وابنها يواجهان أغرب مشكلة من جيرانهما .. والأغرب أن هؤلاء الجيران ليسوا أصحاب العقار أصلاً ، وإنما هم استولوا عليه بوضع اليد ، بعد هذا يطالبون بحقوق الجار وأكثر منها .. إنهم يشكون من أن صوت الثلاجة فى دار آل (كاظم) عال ويضايقهم ! »

بصوت أرستقراطى ثابت قالت مدام (نجوى) :

- « لم أر وقاحة أكثر من هذه فى حياتى كلها ! »

سألتها غير مصدق :

ـ « طبعًا لم تتخلصى من الثلاجة ؟ »

ـ « طبعًا لا .. ولو تخلصت منها لبدءوا الكلام عن صوت قطرات الماء من صنبور الحمام .. إنهم لا يشبعون »

عادت مدام (ثريا) تحكى لى القصة الغريبة :

ـ « كانت هذه هى البداية لقصة طويلة من التحرش .. لقد حاولت مدام (نجوى) وزوجها تفادى الصدام ، لكن هؤلاء البلطجية كانوا وقحين وأخذتهم العزة بالإثم .. المشادات الكلامية تحولت إلى تراشق بالأيدى ومحاضر فى الأقسام .. ثم جاء اليوم الذى وجدوا فيه الزوج رحمه اللَّه ملقى فى الشارع ويبدو أنه مقتول .. لم يكن لدى البائسة إلا أن تتهم جيرانها لأنه لا أعداء لها .. وبالطبع فشلت الشرطة فى إثبات التهمة وقيدت الحادثة ضد مجهول .. »

كانت مستمتعة جدًا وهى تحكى لى هذه القصة المرعبة .. كأنها هى (نجوى) والجيران والمحامى معًا .. فلم تترك لأحدهم فرصة الكلام أو التعليق ..

- « الفكرة هنا أن (شريف) مصمم هو ووالدته على الانتقام لأبيه .. يقول إنه سيذيق هؤلاء البلطجية الويل .. وأنا أحاول إقناعه بأن القانون لن يكون فى صفه .. »

نظرت إلى الشاب فوجدت أنه قادر بالفعل على أخذ حقه .. لكن الأمور ليست بهذه البساطة ..

وقال الأستاذ (بدر) ما لا داعى لقوله لأنه بديهى :

- « لا يمكن أن يأخذ كل إنسان حقه بالقوة .. إن القانون هو السياسة الوحيدة .. »

ابتسمت السيدة العجوز فى مرارة وقالت :

- « نحن نجرب القانون من زمن وهو لم ينصفنا قط .. ثم كيف تبرهن بالقانون على ما عجزت الشرطة عن إثباته ؟ إن قاتل زوجى طليق يمرح ويطالبنا بالمزيد »

قال المحامى :

ـ « صبرًا .. هناك حلول قانونية كثيرة .. فقط لو أنك جلبت ما لديك من أوراق إلى مكتبى .. فلسوف .. »

يتكلم وهو يفتش فى جيبه بحثًا عن بطاقة ، فى النهاية وجد واحدة فناولها إياها وهو يبتسم باعتداد نفس ..

قالت مدام (ثريا) باسمة :

ـ « نصيحتى الوحيدة لك يا (شريف) .. العنف لا يجلب إلا المشاكل .. أعرف أنك حار الدماء ، لكن نداء العقل فوق كل شىء .. »

كنت أنا اشعر بغصة وتقلص فى معدتى ، حتى لأوشك على القىء .. كل هذا الانفعال ـ خاصة مع وجود جثة فى الحديقة ـ لا يناسبنى .. وسمعت مدام (ثريا) تسألنى بطريقتها الأنيقة :

ـ « وأنت .. لم نسمع رأيك يا دكتور (رفعت) ؟ »

* * *

(عزمى) بك ما زال جالسًا مع المهندس الذى يصمم له المدفن الآمن الذى سيحميه من اللصوص .. مدفن سيحسده عليه كل أهل مدينته .. و(كاتيا) اللعوب جالسة تتناجى مع الإيطالى (ماريو) الذى طار عقله تمامًا من سحرها .. الشاعر مرهف الحس (مراد سليم) يقف يتأمل الليل من الشرفة ومن حين لآخر يخرج قصاصة ورق ليدون عليها شيئًا .. بينما مدام (سلوى الصباغ) لاتكف عن الجدل مع ابنها الغاضب ـ قليل الأدب نوعًا ـ (أكرم) .. ومدام (نجوى كاظم) تدبر مع ابنها (شريف) الانتقام لأبيه ..

يمكن القول إننى صرت أعرف جيدًا أهم الموجودين فى هذا الحفل ، ولست مهتمًا بتفاصيل حياتهم على الإطلاق ، لكنهم صاخبون ويعرضون مشاكلهم بحيث لا تملك إلا أن تتابعها ..

على المسرح المرتجل وقف أحد الحواة .. كان رجلاً يلبس الأسود ، ويضع مساحيق كثيفة على وجهه حتى ليذكرك بمهرجى السيرك نوعًا ، وبرغم هذا

يعتقد أنه يثير الإعجاب ، وكأن هذه فرصتنا الوحيدة للاستمتاع بنرجسيته .. وقد أخرج كثيرًا جدًّا من اليمام والمناديل وكرات البنج بونج من كميه وأذنيه وطاقتى أنفه .. وراح يؤدى كل هذا بسرعة ليوحى بالاحتراف ، لكنى بصراحة لم أفهم شيئًا من فرط سرعة الأداء ..

وتقدمت فتاتان من الراقصات إياها تحملان صندوقًا أنيقًا مزخرفًا وضعتاه على الأرض أمامه ..

قال فى لطف يثير الاشمئزاز كأنه ضفدع لزج :

ـ « الآن أنا بحاجة إلى واحد من المشاهدين الشجعان كى ينام فى هذا الصندوق .. »

تقدم أحد المتظرفين ، ونظر لنا ضاحكًا ، ثم وثب إلى الصندوق وفرد جسده .. لكن الصندوق لم يناسب طوله قط .. هز الساحر رأسه فى لطف :

ـ « لا .. أحتاج إلى متطوع شجاع آخر .. »

يبدو بوضوح هذا الرجل شريرًا .. وتذكرت التعبير القرآنى (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) ..

سبحان اللّه .. هذا هو بالضبط ما يعبر عن عينى هذا الرجل .. إنهما تخونانه من وقت لآخر خلف ابتسامته المداهنة ، لتدرك أنه شرير حقًّا ..

تقدم متطوع آخر وجرب النوم فى الصندوق .. لا .. الحجم غير مناسب ..

أشار الساحر إلى رجل يجلس مع زوجته وطفلهما الرضيع ، ودعاه فى لطف إلى أن يجرب ..

فى تردد نهض الرجل وهو يزرر أزرار سترته ..

- « نريد أن نسمع أعلى تصفيق لهذا المتطوع الشجاع !! »

دوى التصفيق بينما تمدد المتطوع الشجاع برفق فى الصندوق .. كان الحجم مناسبًا تمامًا .. من ثم أغلق الساحر الصندوق وهو يدعونا إلى التريث ، وابتسم ابتسامة مشجعة للرجل المُمَد بداخله ..

جاءت الفتيات بغطاء سميك من الكتان غطى به الساحر الصندوق .. طبعًا .. لابد من هذا وحين يرفع

الغطاء نجد الصندوق قد اختفى .. هذه هى التقاليد .. ولكن كيف ؟ أعرف أنهم فى المسرح يستعملون جبًّا تحت المسرح ينزلق إليه الصندوق ، ولكن هل هناك جب تحت فيلا الدكتور (سامى) ؟

ـ « تصفيق حاد للساحر (شندى) !! أوى ى ى ى ! »

يمط اللفظة الأخيرة كما يفعل مطربو الفرق حين يستجدون المزيد من التصفيق .. وتعالت الموسيقا بينما الساحر يزيل الغطاء لنجد أن الصندوق اختفى بالفعل ..

ومن دون كلام كثير انحنى الرجل والفتيات يحيون الجمهور فى رشاقة ، ثم هرعوا يتوارون وراء الكواليس التى هى عبارة عن ستار على جانبى الردهة المفضية إلى باب الخروج ..

ـ « سأخرب بيتك يا (عباس) لو قابلتك ! »

كانت هذه طبعًا من الدكتور (سامى) الذى أفزعه تحول بيته الراقى إلى ناد ليلى ، ومرة إلى خيمة لإحدى فرق المولد الأحمدى .. دعك طبعًا من تحول الحديقة إلى مدفن ..

بدا الجميع منبهرين وعادوا لصخبهم .. لكنى تساءلت : لماذا لم يرجع الساحر الزوج كأى ساحر آخر يحترم نفسه ؟ الزوجة أيضًا خطر لها الشىء ذاته ..

نهضتْ وصاحتْ بصوتها الرفيع :

ـ « ولكن ... أين زوجى ؟ »

لكن لا أحد يهتم بما تقول سواى .. تحول الجمهور كالعادة إلى بقرة غبية عملاقة لها ألف لسان لكن لا عقل لها ..

ـ « أين (مصطفى) ؟ أين زوجى ؟ »

كان لها وجه أسمر كالطمى ملىء بالنبل وفيه قدر هائل من حنان الأمومة .. وعلى هذا الوجه الحساس تتابعت العواطف : الغباء وعدم الفهم ثم الحيرة ثم القلق ثم الجزع ثم التوحش الدامع .. كأنها صورة كمبيوتر من التى يتم فيها على مراحل مسخ صورة رجل لتتحول إلى صورة نمر .. قاسية جدًا هذه اللعبة مع أم ..

ـ« أين (مصمصى) ؟ أين زوجى ؟ »

ونظرت لى دامعة العينين فقلت لها :

ـ لابد أنه وراء هذا الستار يا سيدتى .. لابد أنه حيث توارى الساحر .. »

هرعت تركض إلى هناك ، وطفلها على كتفها بينما عاد الناس إلى الصخب والمرح ..

على بعد أمتار وجدت د. (رمزى) واقفًا مع زوجته (مارى) ، لكن نظرة حيرى شاردة كانت فى عينيه وهو يتابع المشهد .. طبعًا من حقه أن يفقد مرحه .. ألا توجد جثة فى حديقة الفيلا ؟

لكن تقطيبه جعلنى أدرك أنه يفكر فيما هو أعمق وأخطر من هذا كله ..

ثم عاد إليه روعه فعاد يثرثر مع زوجته ، وبدا لى كأنما نسى الأمر برمته ..

ألم أعدكم أن تكون أسطورة مملة ؟

* * *

٦ ـ المواجهـــة ..

الآن يتأبط الإيطالى المخدوع أو المفتون ـ لا أدرى بالضبط ـ ذراع الساحرة الصغيرة (كاتيا) ، وينهضان نحو المائدة التى رصت عليها أصناف المأكولات .. تبدى هى دلالاً طفوليًا كأنما لا تصبر أمام هذه المأكولات ..

تقول له بصوت راقص :

ـ « حتب جميلة .. حتب فاخرة ! »

فيهمس لها كى تصمت ، ويتناول طبقًا ليضع لها بعض المأكولات فيه ..

ما معنى (حتب) هذه (تنطقها بكسر الحاء والتاء) ؟ هذه المرأة تقول أشياء غريبة أكثر من اللازم ..

هنا قطع على أفكارى أن ظهر الأخ (أندريو كوزليونى)

الذى هو شقيق زوجة (ماريو) نفسه .. كان سمجًا كالعادة ، وبالطبع حرص على ألا يخرج يديه من جيبه .. دنا منهما .. وبالطبع بدا الرعب والتوتر على المرأة ، أما الرجل فقد توتر وجهه وقطب جبينه ..

قال (أندريو) بعربية تشى بأنها إيطالية مثلما يتكلم البارمان فى أفلامنا العربية :

ـ « (ماريو) .. أنت تجاوزت الحد .. »

بلغة مماثلة وتحد مماثل قال (ماريو) :

ـ « (أندريو) .. لا شأن لك بى .. إن أختك معززة مكرمة وتظفر بما تريد »

ـ « أنا لا أتحدث عن أختى برغم ما لحق بها وباسم أسرة (كوزاليونى) من عار لا شك فيه .. أنا أتكلم عن كرامتنا الوطنية .. هأنتذا بدلاً من القيام بعمل جاد تضيع وقتك مع مصرية لعوب .. والبداهة أنها تخدعك .. إنها تحاول أن تحطم صفنا وتحطم ما اتفقنا عليه من قبل .. »

التصقت (كاتيا) الساحرة بالرجل أكثر ، وبدا أنها خائفة بحق ..

قال (ماريو) :

ـ « (أندريو) .. أنت شقيق زوجتى التى أحترمها وأحترم اسم أسرتها .. »

ـ « هذا واضح !! »

ـ « .. ولا أرغب فى أن أخوض معك قتالاً .. لهذا أرجوك .. دعنى وشأنى .. »

وضع (أندريو) قبضتيه فى خصره وقال :

ـ « لقد مات العجوز (باولو) وقد استحق هذا .. لكن لاتنس أنه هو الآخر قد وقع فى شراكها .. كلاكما أحمق نسى كل شىء بمجرد أن رأى عينى هذه المرأة العسليتين »

هنا تبادلت نظرة دهشة مع د. (رمزى) .. كيف عرف هذا الرجل أن (باولو) قد مات ؟ لا أحد يعرف سوانا ، فمن ليس منا فهو القاتل بالتأكيد أو كان ضمن القتلة ..

هذا الفتى يعترف إذن بأنه قتل (باولو) ..

كان الواقفون قد بدءوا يحتشدون حول المتعاركين كلاميًا ، وقد ساد جو التوتر القاعة كلها ..

نزع (أندريو) سترته السوداء وتقدم نحو (ماريو) .. وقبل أن نفهم ما يحدث صفعه على خده ..

ـ « هذه دعوة للتحدى .. اترك هذه المصرية اللعوب وواجهنى كما يفعل الرجال .. هذا لو كنت تذكر كيف يتعارك الرجال .. »

نزع (ماريو) بدوره سترته وتقدم خطوة للأمام وقال فى شمم :

ـ « سأريك يا (أندريو) أننى أعرف كيف أقاتل كالرجال .. »

وكور كل من الرجلين قبضته وراح يتواثب كالبرغوث متأهبًا لتوجيه اللكمة الأولى .. وكان الناس ينتظرونها فى شغف ، لولا أن وثب د. (سامى) بينهما وصاح :

- « لو سمحتما لى .. هذه دارى وأنا سيدها الوحيد .. لو لم تتفضلا بمغادرة المكان فلسوف أبلغ الشرطة وأنا أعنى ما أقول ..... ! »

لم ينظر له أى من الرجلين ، لكنهما ارتديا السترتين ، وتفاهما بنظرة واحدة .. من الواضح أنهما سيكملان ما بدآه خارج دار هذا الرجل الطيب .. وفى صمت مشى الاثنان نحو الباب ..

صرخت (كاتيا) وهى تركض نحوهما :

- « (ماريو) ! لا تشتبك معه .. أرجوك ! »

لكنه ابتسم لها فى ثقة .. ومشى مع الآخر مغادرين الحفل ..

ضاربًا كفًا بكف صاح د. (سامى) :

- « مستشفى الأمراض العقلية الذى أعمل فيه قد انتقل إلى بيتى ! إن هؤلاء القوم لا يتمتعون بالرقى على الإطلاق .. »

إذن هو لا يمزح وليست هذه لعبة .. ليست تجربة .. إنه عصبى إلى درجة تجعلنى أحجم عن سؤاله ..

قلت له فى ثقة :

ـ « هـؤلاء الإيطاليـون يعملون جميعًا مع المافيـا لو أنك صـدقت الأفـلام الأمريكيـة .. أنـت تعرف هـذا الهراء على غرار : أنت أهنت الأسرة ويجب أن تنام فى قاع المحيط مع الأسماك .. الخ .. »

تنهد فى ضيق ونظر إلى الساعة .. كانت منتصف الساعة الحادية عشـرة .. يبـدو أنـه صـار يتمنـى أن تنتهى هذه الليلة مثلى ..

هنا وهنا فقط، دخلت الزوجة السمراء القاعة من أحد أبوابها ، حاملة طفلها على كتفها وراحـت تـدور على الجالسين كأنـها تتسول :

ـ « هل رأى أحدكم زوجى؟ هل رأى أحد (مصطفى)؟ »

طبعًا لا رد .. الأمر خطر إذن ..

قلت لـ / د. (سامى) فى ضيق :

ـ « الأمر خرج من نطاق المجاملة وصار جنونـًا .. يجب أن تبلغ الشرطة حالاً .. »

نظر لى بعينين تعستين لا ،تريان ثم مشى ـ وأنا معه ـ إلى حجرة جانبية صغيرة يبدو أنها عبارة عن مكتب صغير له .. أوصد الباب كى يمنع كل هذا الصخب بالخارج من الدخول ، وقال لى :

ـ « اطلبهم أنت فلم أعد أدرى ما أقول .. »

كان هناك هاتف وردى اللون على المكتب فهرعت له ، وطلبت الرقم السحرى .. استغرقت وقتًا أطول من اللازم كى أدرك أنه لا توجد حرارة .. وكان هذا معتادًا فى السبعينات على كل حال ..

رأى نظرة وجهى وضرباتى المتكررة على الزر ففهم ..

ـ « يا للمصيبة ! »

وجفف العرق على وجهه ، وغادر الغرفة دون أن يقول لى حرفًا واحدًا ..

لما لم يكن لدى ما أفعله ، غادرت الغرفة ماشيًا وراءه ..

* * *

رأيته يخرج إلى الحديقة الباردة ، وكان المطر قد بدأ ينهمر منذرًا بتحويلها إلى وحل .. هذا ما كان ينقصنا من أجل المزيد من البهجة .. إنه يمشى بين التماثيل متجهًا إلى تلك الحجرة الصغيرة بين الشجيرات ، التى تصلح لبواب صغير الحجم أو كلب عملاق ..

وقف على الباب ووضع يده على رأسه ، ولم أفهم ما هنالك ؛ لأننى كنت أراه من ظهره وهو يقف على الباب المفتوح ، وقد أضاء كشافًا صغيرًا من النوع الذى يوضع فى الجيب ..

دنوت أكثر فسمعته يقول شيئًا ما عن (عباس) الوغد الذى اختفى تمامًا حين لا يجب أن يختفى ..

وعلى ضوء الكشاف الواهن الضيق رأيت من فوق كتفه ما رآه ..

كان الفراش خاليًا ..

جثة العجوز الإيطالى (باولو) لم تعد هناك ..

شعر بوقوفى خلفه فقال :

- « لقد رحل .. »

- « لاحظت ذلك ، ولا أجد تفسيرًا .. »

- « ربما أفاق ونهض .. »

- « نهض ؟ لقد شبع موتًا حين رأيناه .. كانت هناك طعنتان فى القلب ذاته .. لو كان حيًّا حين رأيناه فلا وجود للموت إلا فى خيالاتنا إذن ! »

- « إذن ؟ »

- « لربما سرقه أحد .. أو أخفاه .. قلت لك إن هؤلاء الإيطاليين يعملون مع المافيا دائمًا .. هناك عدد منهم قتلوه فلا أستبعد أنهم أخفوا جثته كى لا تراها الشرطة .. لاحظت أن هذا الفتى المدعو (أندريو) يعرف جيدًا أن العجوز مات ، فمن أخبره بذلك ؟ »

لم يرد ، واستدار عائدًا إلى الفيلا .. الطريف فى الأمر هو أنه كف فى الآونة الأخيرة عن اعتبارى

كائنًا حيًّا .. إن شرود ذهنه وتوتره جعلاه يعاملنى كالجماد .. يتركنى متى شاء ، ويقطع كلامى متى شاء ..

ثم سمعنا صخبًا وأنينًا وضربات مكتومة قادمة من خارج سور الفيلا ..

نظرنا إلى مصدر الضربات فرأينا .. كان الإيطاليان (ماريو) و(أندريو) يتقاتلان كما لم يتقاتل أحد من قبل .. كطفلين انتظرا حتى يغادرا سور المدرسة راحا يكيلان اللكمات واللطمات لبعضهما على الإفريز المجاور لسور الفيلا من الخارج .. وكان المطر قد بدأ يبلل ثيابهما ويحيل شعريهما إلى عجين أشقر ..

بوم .. ثمب .. بوم .. طراخ !

أحدهما يسقط فينقض عليه الآخر ، لكن الأول يتلقاه بركلة فى بطنه ، وهكذا ..

قلت لـ/د. (سامى) :

ـ « هل نخرج لنخلصهما ؟ »

ـ « فليذهبا إلى حيث ألقت .. ما داما بعيدين عن دارى فليفعلا ما يروق لهما حتى لو مزق أحدهما الآخر .. »

وجوار السور من الداخل رأيت شبحًا رقيقًا يتمسك بالقضبان الحديدية ، ويراقب ما يحدث فى لوعة .. شبحًا بلل المطر ثوب سهرته الخفيف تمامًا ، لكنه لا يشعر بما يدور من حوله ، بل إنه كان يشارك الرجلين بالتشنج ومن حين لآخر يرفع ساقه فى صورة ركلة مساندة .. لم يكن القتال بين اثنين فى الواقع بل بين ثلاثة .. والثالث هو (كاتيا) تقاتل بالعواطف والانفعالات ..

ما سر كل هذا الحماس ؟

دنوت منها وقلت لها فى أدب :

- « سيدتى .. لا يمكن أن تبقى هنا .. إن الجو ... »

لم تشعر بى حتى اضطررت إلى أن أضرب كتفها وأكرر ما قلت ، فاستدارت لى .. هل الذى يبلل وجهها هو المطر أم الدموع ؟ قالت لى وهى ترتجف :

- « دعنى من فضلك .. لن أتحمل أن يحدث له شىء ! لقد حدث له كل هذا بسببى أنا .. بسببى ! »



وجوار السور من الداخل رأيت شبحًا رقيقًا يتمسك بالقضبان الحديدية ويراقب ما يحدث فى لوعه ..

كانت لهجتها قاطعة حتى إننى تراجعت لألحق بـ/د. (سامى) وأنا أفكر ..

القصة قصة حب إذن ، وليست مجرد وسيلة تحمى بها الأنثى الضعيفة نفسها من خصوم لا قبل لها بهم ..

ما معنى هذا ؟ هل كانت تخدع العجوز بينما هى فعلاً تحب هذا الـ (ماريو) ؟ وما معنى كل ما قالته لى ؟

ثم هذا الـ (أندريو) ؟ جميل أن يدافع المرء عن كرامة أخته .. لكن ليس إلى درجة قتل زوجها لمجرد أنه يجلس فى حفل مع فتاة أخرى .. هناك اللوم أو التوبيخ أو حتى إقناع الأخت بالانفصال .. لكنى لم أسمع عن أخ انتزع حنجرة زوج أخته لمجرد أنه متحمس ..

لا تفسير .. والأدهى أن الأمطار تزيد الأمور سوءًا ...

ألم أعدكم أن تكون أسطورة مملة ؟

* * *

٧ ـ اثنا عشر كأسًا ..

الآن كانت مدام (ثريا) زوجة المضيف تجلس إلى جوار مدام (مارى) زوجة الضيف ، تتسليان بشىء من تلك الأشياء التى تكسر بالأسنان وتوضع قشرتها فى الأطباق .. أى تلك الأشياء التى صرت أعتبر أكلها بطولة .. قد بدا لى أنهما تستمعان بوقتهما حقًّا ، وكان الفخر جليًّا على وجه مدام (ثريا) ، فهى لم تتوقع أن يكون زوجها قادرًا على إعداد حفل مفاجآت بهذا الإمتاع والتشويق .. لقد فاجأ الجميع بمن فيهم هى نفسها ..

سألت الثانية عن زوجها ، فهزت يدها بمعنى أنها لا تعرف وقالت :

ـ « يعلم اللّه إنه شارد الذهن تمامًا .. يبدو أنه أصيب بكراهية المجتمعات منك .. »

قالت لها مدام (ثريا) مصححة :

ـ « فوبيا المجتمعات .. لا تنسى يا حبيبتى أنك فى بيت طبيب نفسى .. »

وانفجرت السيدتان ضاحكتين .. فابتعدت وأنا أشعر بأننى على وشك خنق أحد ..

هنا اصطدمت بالشاعر مرهف الحس إياه .. ماذا كان اسمه ؟ (مراد سليم) .. كان واقفًا وحده ينظر إلى المدفأة التى رفض أصحاب البيت إيقادها كى لا يصاب كل هؤلاء بالالتهاب الرئوى عند خروجهم بعد منتصف الليل .. لاحظت نصفه السفلى البدين بالنسبة لنصفه العلوى ، وقلت لنفسى إنه مصاب على ما يبدو بأحد أمراض الغدد الصماء ، ويدعى متلازمة (فروليك) .. أو يبدو كأحد المصابين بهذا المرض ..

كان يهمس بصوت مسموع :

« يا سيدى ...

قليل من الناس يفهم من أنت ..

لأنى وحدى أعرف سرك ..

عرفتك فى كتمان وصمت ..

وحين ذاع سرى .. تنادوا باسمك ..

وكان على أن أدفع الثمن ..

لأن أعداءك حولى كثير ..

ولأن قرارى عسير .. »

ما زلت لا أجده موهوبًا ، لكن عم يتكلم بالضبط ؟

رآنى أقف جواره فانفرجت شفتاه الغليظتان ، وبدا الحزن فى عينيه وقال :

ـ « هل راقت لك القصيدة ؟ »

كدت ألقى بنفسى على الأرض وأتلوى وأضرب خدى انبهارًا .. لكنى اكتفيت بأن هززت رأسى فى وقار .. هزة معناها قد يكون (رائعة) أو (استمر) أو (بوسعك أن تعطينا أفضل) ..

ثم ابتعد وهو ما زال يترنم بالمزيد مما يقول ..

شعرت بأن الربيع والبلابل والندى والأنسام بقربى فنظرت غير فاهم .. كانت زوجته الرقيقة ترمقه فى مزيج من الحزن والضيق .. شعرت بالحرج حين تلاقت النظرتان .. هى فهمت أننى أتأمل زوجها بأكثر مما يبرره الموقف .. لابد أن خاطرًا ما يجول بذهنى ، وهى راغبة على ما يبدو فى معرفة هذا الخاطر ..

قلت لها مداهنًا :

- « زوجك شاعر مطبوع يا سيدتى .. »

ابتسمت فى حزن ، وهزت عنقها الطويل وقالت :

- « هو شاعر بالتأكيد .. لكن من دون شعر .. »

ونظرت لى وابتسمت أكثر .. هنا لاحظت ما لم ألحظه من قبل .. غريب أننى لم أرها إلا من الجانب الأيمن أو من الخلف أو هى مغمضة عينيها .. الآن ألاحظ أن عينها اليسرى ليست على ما يرام .. هناك سحابة بيضاء على القرنية .. يا للخسارة ! الآن أفهم ما قاله آباؤنا عن (الحلو ما يكملش) ..

تأدبًا تفاديت إطالة النظر ، وكان اعترافها الصريح لرجل لا تعرفه قد أثار دهشتى ..

قلت لها :

ـ « بالعكس .. إن شعره يوحى بجو كونى غامض ، ولم أسمع مثله من قبل .. »

قالت وهى تنظر نحوه :

ـ « هذه هى المشكلة .. إنه لا يأتى إلا بالجديد فى كل شىء .. ثورة فى ثورة فى ثورة ، ولا أحد يتحمل هذا كله .. لهذا يكسب كل يوم الكثير من الأعداء .. أحيانًا أرى أن الحياة عش دبابير من الخير عدم معابثتها أو إزعاجها بالركلات .. »

كان الآن يقف مع أمه يثرثران .. وكان مجرد وجودها قد جعله يستعيد مرحه .. هذا رجل واقع تمامًا تحت سلطة الأم ، وعلاقته بالأنثى هى أن تكون أمًّا له .. بينما الزوجة التى لا تستطيع أن تكون أمًّا تجد نفسها بالطبع فى آخر أولوياته ..

أضافت فى شرود :

ـ « المشـكلة الأخرى هى أنه لا يتـابع شيئًا مما يحدث حولـه .. إن تكون ممتلكاتـه تضيـع وأعـداءه يعبثون ، بينمـا هو غارق فى عمله الخاص الذى لـن أستطيع فهمه أبدًا .. لكنى أتظاهر بالفهم .. »

لـم أجد مـا أقول فـابتعدت عنهـا بعد مـا هـززت رأسى فى رفق ..

وفـى ركـن القاعـة وقـف مجموعـة مــن الشـباب يمرحـون ويضحكـون بصـوت عـال .. كــانوا جميعًـا متشابهين ، ببشرتهم السمراء وقامـاتهم الفارعـة .. من هؤلاء ؟ ألاحظ أن سمر البشرة أكثر مـن الـلازم هذه الليلة وكلهم غريبو الأطوار ..

وقف شاب وسط المجموعة وقال لهم بصوت عال :

ـ « إن لقاءنا الليلة هنا لمناسبة تستحق الاحتفال .. منكم من أتى من الصعيد ومنكـم مـن أتـى مـن وجـه بحرى .. »

قال أحد الشباب ضاحكًا :

ـ « وأنت رجل (صا الحجر) بيننا .. »

كانت (صا الحجر) بلدة صغيرة فى محافظة الغربية أقرب إلى قرية ، وكنت أعرفها طبعًا ، لكنى لم أفهم معنى أنه رجل (صا الحجر) .. على كل حال منظره يدل على أنه من أعيان تلك البلدة .. وكان ذا قوة شخصية وسيطرة واضحتين كأنما هو زعيم المجموعة ..

قال لهم وهو يلوح بإصبعه مستدعيًا أحد السقاة :

ـ « حان وقت أن نحتفل بنخب هذا .. سنشرب ونأمل أن نظل أصدقاء دائمًا .. »

جاء الساقى ، فطلب منه الشاب أن يأتيهم بإبريق ملىء بالعصير ومعه اثنا عشر كأسًا .. وهو مطلب غريب لم أفهمه .. لم لا يأتى بالكئوس مفعمة من البداية ؟

هكذا عاد الساقى بعد قليل حاملاً صينية تراصت عليها الكئوس ، فمد كل واحد يده .. أدركت أن هناك

كأسًا ناقصة لما رأيت كل واحد من الشباب يحمل واحدًا ما عدا هذا الشاب المسيطر ..

- « هاك خذ كأسى .. »

قالها أحدهم وهو يناوله الكأس من يده ، لكن الشاب اعتذر شاكرًا .. تلفت حوله حتى وجد مطفأة تبغ من البرونز موضوعة على منضدة ، فأمسكها وتفحص قاعها ومد بها يده للساقى ضاحكًا :

- « هاك ! إنها نظيفة .. »

واضعًا يده اليسرى خلف ظهره ليوحى بأن الخدمة خمس نجوم ، قال الساقى بطريقته اللبقة (الفندقية) :

- « لا أرى ما يدعو لهذا يا سيدى .. سأحضر لك كأسًا حالاً و ... »

- « لا تتعب نفسك .. النتيجة واحدة .. هيا .. »

ومترددًا صب له الساقى بعض العصير فى الوعاء البرونزى المرتجل .. فرفعه إلى شفتيه ، وكذا فعل الباقون :

ـ « فى صحة صداقتنا الأبدية .. »

انتهى الشرب .. هنا ألقى أحد الفتية كأسه على الأرض وصاح فى ذهول :

ـ « يا إلهى ! هو شرب فى كأس من برونز .. هل فهمتم ؟ »

تبادل الفتية النظرات فى ذهول .. وأدركت أن الأمر أخطر من مجرد شرب العصير فى مطفأة تبغ ..

ـ « أنت تعمدت ذلك يا (باسم) !! »

هتف الفتى وهو يمسك كأسه بيديه وفى ذهول :

ـ « أقسم لكم إننى لم أتعمد هذا .. لقد فعلته عفوًا .. »

ـ « بل أنت كاذب .. كل هذه لعبة لفقتها أنت كى تشرب فى كأس من برونز .. لأنك تعرف ما قيل لنا .. من يشرب منا فى كأس من برونز سيكون هو صاحب الكلمة العليا ! »

- « أقسم إننى لم أتعمد ذلك .. (باسم الصـاوى) لا يخدع رفاقه »

وقال واحد آخر وهو يكور قبضته غيظًا :

- « كنت دائمًا طموحًا ترغب فى أن تكون لك الكلمـة العليا علينا .. لكننا لن نلعب ألعاب الأطفال هذه ! »

دنا منى د. (رمزى) وقد شعر بجو التوتر العام .. دنا من أذنى وهمس :

- « ماذا هناك ؟ مشاجرة أخرى ؟ »

- « يبدو ذلك .. »

- « إن د. (سامى) - على ما أعتقد - صـار أقل تدقيقًا فى اختيار ضيوفه .. هل نحن فى حفل أم فـى (درب الفتوات) هنا ؟ »

قلت وأنا أتابع ما يحدث عازمًا على ألا يفوتنى شىء :

- « إحدى عشرة كأسًا والثانية عشرة من البرونز .. لهذا ينوون معاقبـة الفتـى الـذى تجرأ وشـرب فـى البرونز .. هؤلاء القوم مخابيل .. »

لكنى سمعت د. (رمزى) يتنفس بصوت مسموع ..
ثم همس بصوت كالفحيح :

ـ « إحدى عشرة كأسًا ؟ هم م م م ! »

فى هذه اللحظة كانت المواجهة قد بلغت الذروة ..
لقد وقف الفتية فى صلابة وأشار أحدهم إلى الباب :

ـ « أنت مخادع يا (باسم) .. اخرج من هنا فلا
أحد يرحب بك ، ولا نريد أن نرى وجهك ثانية .. »

قال آخر :

ـ « عد إلى (صا الحجر) .. أو لو أردت رأيى ..
ابتعد عنها أيضًا .. »

لم يجد الفتى المظلوم ـ أو هكذا أعتقد ـ مناصًا من
الخروج كاسف البال مدلهمًا .. مر بنا فتبادل وإياى
نظرة ثم اتجه للباب .. كاد يصطدم بالمرأة السمراء
التى تحمل طفلاً والتى تبحث كالمجنونة عن زوجها ..

قال له بصوت لواه الدمع :

ـ « سيدى .. لو قابلت (مصطفى) زوجى بالخارج ،
فلا تنس أن تخبرنى بذلك .. »

نظر لها فى صمت ، ثم انحنى ولثم يدها فى احترام وغادر المكان ...

- « قال إنه من (صا الحجر) ؟ »

كان هذا صوت (رمزى) الذى كان يتابع المشهد باهتمام ..

أشرت برأسى موافقًا ، فهز رأسه وعاد لشرود ذهنه الذى يوترنى .. لكن شيئًا لم يحدث بعد هذا ..

ألم أعدكم أن تكون أسطورة مملة ؟

★ ★ ★

٨ ـ المزيد من الغرائب ..

منتصف الليل أخيرًا !

بقيت ثوان عليه ، ورأيت من يقف على المسرح المرتجل ليصيح مع عقرب الثوانى على الساعة الكبيرة الموجودة على المدفأة :

ـ « خمسة .. أربعة .. ثلاثة .. »

ومعه تعالى صوت الموجودين يرددون وراءه ما يقول .. لا أدرى ماذا يسعد المرء فى كونه اقترب عامًا من النهاية ؟ لابد أن هؤلاء القوم يملكون الكثير من الأعوام إذن ..

ـ « اثنان .. واحد .... »

الآن يلامس عقرب الثوانى الرقم الثانى عشر ، فتنطفئ الأنوار .. تبًا ! كأن ما ينقصنا هو الظلام ..

تعزف الموسيقا لحنًا لا أدرى ما هو .. لكن ثقافة هؤلاء القوم عالية .. لابد أنه لحن (رأس السنة) للموسيقار الإيطالى (سباجيتى) ، وأنا لا أعرف لأننى (العربجى) الوحيد فى هذا الحفل ..

المهم الآن أنه صار من حقى أن أشكر د. (سامى) وأعود إلى دارى .. هل سيطلب الشرطة ؟ لا أدرى .. القرار قراره لكن البلاغ سيكون صعبًا من دون جثة ..

فى الظلام شعرت بمن يجذبنى إليه .. من ؟ لابد أننى بدوت وسيمًا فى عين واحدة من الحسناوات ، وهى تكره أن يبدأ العام الجديد دون أن أكون جوارها .. يا لها من رومانسية !

لكن الجذبة كانت أقوى من اللازم ، وأخيرًا أدركت أن هذه اليد القوية الحازمة هى يد د. (رمزى) الذى عرف مكانى فى الظلام لا أدرى كيف ..

قال فى غيظ :

- « مالك ؟ أتراك نمت بمجرد أن وجدت ظلامًا ؟ يالك من أحمق ! »

ـ « لا أرى أننى فعلت كل ما يستوجب هذا السباب ..
إننى ... »

ـ « انظر يا أحمق ! انظر إلى اليمين ! »

ونظرت إلى اليمين فى اللحظة التى عاد فيها النور الساطع ليحرق شبكيات عيوننا ، وبصعوبة تمكنت من أن أفتح عينى .. قلت له وأنا أرمش بعينى :

ـ « ماذا ؟ هل هناك شبح ؟ »

ـ « تقريبًا .. هل ترى هذا الفتى الذى كان مع ثرى (صا الحجر) ؟ إن عينيه كانتا تتألقان فى الظلام كميناء ساعتك الفوسفورية ! »

قلت فى غيظ :

ـ « آه ! لن نعود لهذا لمجرد أننى موجود .. لابد أن فى مصر مكانًا يخلو من الأشباح ولو لنصف ساعة يوميًا .. »

- « لا دخل لى بوجودك أو مماتك .. أنا قلت لك ما رأيته .. »

- « وأنا أقول إنك تتخيل .. »

كانت الموسيقا على المسرح تتعالى كأنه حفل خيرى للصم .. أو كأن الغرض هو زيادة عدد الصم على ظهر الأرض .. وتقريبًا راح الجميع يرقصون .. ورأيت الدكتور (سامى) يتلقى كتفًا لا بأس بها ألقت به إلى الوراء مترين .. جميل أن أحدًا لا يعبأ بصاحب البيت على الإطلاق ، ولو أنه حاول طردهم فلسوف يطردونه هو .. بشكل ما أرى أنها عدالة شعرية وأنه يستحق ما يحدث له ..

لكن استلفت نظرى مشهد غريب بعض الشىء ..

إن (كاتيا) ساحرة الرجال قد عادت من الحديقة أخيرًا .. كانت مبللة بالماء كالأسماك ، كاسفة البال تمشى فى تؤدة وهى تخترق جموع الراقصين كأنما لا تراهم ..

هرعت ألحق بها وسألتها بصوت عال بسبب الضوضاء :

ـ « هل تريدين شيئًا ؟ »

نظرت لى بعينين زرقاوين تجمعان بين التوحش والحزن .. غريب أن ترى التوحش يسبح فى بركة من الدموع ، لكن هكذا عيون النساء .. برغم هذا ما زالت جميلة ..

قالت فى صوت كالفحيح :

ـ « مات .. حبيبى (ماريو) قد مات .. قتله (أندريو) على الإفريز المبتل وانتهى كل شىء ! »

يا للكارثة ! لو سمعك د. (سامى) لانتحر فورًا !

قلت لها فى رفق :

ـ « لا تخافى .. سنتصل بالشرطة ، ولسوف يأتون به .. ولكن اسمحى لى .. إن ثيابك مبتلة ، ولا شك أن الرطوبة بلغت منك نخاع العظام .. ستصابين بالتهاب رئوى محتوم .. أعتقد أن مدام (ثريا) ستأخذك إلى حيث تستبدلين الثياب وتجدين بعض الدفء .. »

فى توحش وعصبية قالت :

- « من فضلك .. لا تتدخل فى أمورى .. أنا أعرف كيف أعنى بنفسى .. »

- « ولكن ... »

رفعت رأسها وشمخت بأنفها فى كبرياء وقالت :

- « من فضلك يا سيدى .. أنت كنت كريمًا معى ، فلا تجعلنى أقابل كرمك بوقاحة .. »

تراجعتُ للوراء ، وقد قررتُ أنها بالفعل قادرة على إيذائى بالكلام لو أصررت أكثر .. أفسحتُ لها المكان فتقدمتْ فى سكون وهى تضم ذراعيها على صدرها طلبًا للدفء ، وسرعان ما غابتْ وسط الزحام ..

لقد أحببتْ ذلك الفتى حقًا .. إنه محظوظ .. أعنى أنه كان محظوظًا ..

بقى أن ننقل الخبر الأسود الكبير للدكتور (سامى) .. هرعت إلى د. (رمزى) وأخبرته بما حدث ، وأن لدينا أحد ضيوف الحفل يرقد على الإفريز فاقد الحياة الآن ..

قال وهو يضرب كفًا بكف :

ـ « هذه ليلة نحس .. أعتقد أن لوجودك دورًا لا بأس به فى هذا كله .. »

ـ « عار عليك أن تؤمن بهذه الترهات .. »

وبحثنا عن د. (سامى) فوجدناه يجلس على مقعد جوار الباب وقد تحول إلى حطام بشرى من فرط إرهاق وتوتر ، فأخبرته بالقصة كلها عسى أن يصاب بنوبة قلبية .. لكنه كان راضيًا عن حقيقة أن الرجل مات خارج أسوار الفيلا ..

ـ « هو ليس على (قوة المنزل) .. لا دور لى ولا مسئولية .. »

ـ « لكن هذا لا يمنع من ضرورة إبلاغ الشرطة بكل هذه التفاصيل .. »

ـ « الهاتف ما زال بلا حرارة .. »

ـ « إذن لدينا عدد لا بأس به من السيارات .. سيذهب أحدنا للإبلاغ .. »

قال لى وهو يفك ربطة عنقه قليلاً طلبًا للهواء :

- « اذهب أنت يا د. (رفعت) .. إننى لا أستطيع ترك ضيوفى ، ود. (رمزى) ليست معه سيارة .. »

دق قلبى من فرط الحماس ، وصحت وأنا أنهض :

- « وهل تسمح لى بألا أعود ؟ سأتجه إلى البنسيون رأسًا .. إن لديك عددًا كافيًا من الشهود لو كنت تريد بعضهم .. »

- « اذهب إلى حيث ألقت .. »

ثم صاح فى غيظ :

- « لو ظهر (عباس) هذا أمامى لتمنى لو لم تلده أمه .. »

وانطلقت كالعصفور - لو كان هناك عصفور أصلع - أغادر هذا الحفل الشنيع .. خرجت إلى الحديقة الباردة ومشيت بين التماثيل المضاءة قاصدًا البوابة الرئيسية .. بالمناسبة أين البواب ؟ كيف لم أره طيلة هذه الأمسية ؟ هو فقط أدخلنى ثم اختفى تمامًا ..

لكن البوابة كانت مغلقة .. كان عليها جنزير ثقيل لا يمكن فتحه إلا بالديناميت أو المفتاح طبعًا .. وهكذا رحت تحت الأمطار أنادى بأعلى صوتى :

ـ « عم (حمزة) !! عم (حمزة) ! »

لكنه لم يكن هناك .. حتى غرفته طرقت بابها جيدًا لكن لم يبد أن أحدًا بها ..

وهكذا عدت مضطربًا إلى داخل الفيلا حيث كان د. (سامى) جالسًا وسط الصخب ، وقلت له إن البوابة مغلقة ..

ـ « كيف ؟ ما هذا التهريج ؟ »

ـ « هذه هى الحقيقة .. لعل البواب أغلقها .. »

ـ « (حمزة) ليس هنا .. لقد سمحت له بالانصراف بمجرد بدء الحفل .. إن ابنه مريض فى قريته .. »

ـ « إذن من فعل ذلك ؟ »



لكن البوابة كانت مغلقة .. كان عليها جنزير ثقيل ، لا يمكن فتحها إلا بالديناميت أو المفتاح طبعًا .. وهكذا رحت تحت الأمطار أنادى بأعلى صوتى :

- «عم (حمزة) !! عم (حمزة) !»

نظر إلى الزحام حيث الكل يرقص ويصخب ويتواثب ويلبس الطراطير وينفخ البالونات وتلك اللعبة الشبيهة بلسان الحرباء .. وقال فى إنهاك :

ـ « أغلقها واحد من هؤلاء ! لقد صارت دائرة البحث ضيقة ! »

* * *

آخر من رأيته يغادر الحفل كان ذلك الشاب ذا الكأس البرونزية ، فهل هو من فعلها ؟ ولماذا ؟ طبعًا لا داعى لأن أقول إن د. (سامى) لم يكن يملك المفتاح .. لهذا بدا أننا مسجونون إلى ما شاء اللَّه .. ليس هذا الوضع غريبًا فقد اعتدته ، ولكن كيف أفر من هذا المكان العجيب ؟

قال لى د. (سامى) وقد بدا أن الإنهاك جعله أميل إلى السخرية واللامبالاة :

ـ « سنضحك كثيرًا حين يحاول هؤلاء تسلق البوابة الحديدية ! »

- « سيجنون لو عرفوا أنهم محبوسون .. إن عقدة الأماكن المغلقة تحيل الناس إلى وحوش فاقدة المنطق .. »

قال باسمًا :

- « حين يفيقون من صخبهم يمكنهم أن يتحولوا إلى وحش .. لكن حتى تلك اللحظة لا يبدو أن أحدهم يتعجل الرحيل .. »

ثم صافح د. (رمزى) مصافحة صاخبة بأسلوب (كفك) وهتف :

- « كل عام وأنت بخير يا (أبو رمزى) ! كل عام وأنت بخير يا (أبو الرفاع) ! العام الجديد يبدأ بداية واعدة !! »

- « هذه بدايته فكيف تكون نهايته إذن ؟! »

بدأت أحكى لهما القصص الغريبة المتشعبة لكل الناس فى هذا الحفل .. وبدا عليهما الذهول وهما يسمعان كل هذا .. الحقيقة إن أحدًا لم يمض الوقت كله

يصغي ويشاهد مثلي ، لهذا كانت عندى الصورة كاملة ..
هذه مزية أن تكون زهرة حائط وحيدة ..

فى هذه اللحظة بالذات ظهرت السيدة (نجوى كاظم) ..
كان ابنها (شريف) معها ، وقد بدت على ملامحهما
الجدية والخطورة .. كان ينظر إلى الأرض مصغيًا
لكلامها باهتمام وحماس وصدره يعلو ويهبط ..

احتضنته الأم ولثمته على خده وقالت بصوت مسموع :

ـ « أنت أملى الأخير يا (شريف) بعد أبيك .. اذهب
واثأر لكرامتنا .. أنت صعيدى والثأر مقدس لدينا »

هز رأسه ولثم يدها ، ثم ابتعد أمام عينى الأم
الشفيقتين .. ابتعد نحو الباب ...

قال د. (رمزى) بصوت عال :

ـ « البوابة مغلقة من هنا أيها الشاب .. يجب أن
تنتظر ! »

لكنى قلت له همسًا :

- « دعه .. هذا الفتى يبحث عن مصيبة ومن الخير أن نتركه .. إنه ذاهب للانتقام ممن قتلوا أباه ، لأن صوت الثلاجة يضايقهم ! وثق أنه سيعرف كيف يخرج حتى لو هشم البوابة تهشيمًا .. »

- « ذاهب لينتقم فى هذا الوقت بالذات ؟ يا أخى لماذا لا ينتظر حتى الصباح ؟ »

- « إنه الحماس كما تعلم .. »

حرك د. (رمزى) أنامله حول جبهته كمن يصف مجنونًا .. ثم تصلب كمن تذكر شيئًا .. ورأيت نظرة جادة خطرة على وجهه .. هذه النظرة رأيتها أكثر من مرة هذه الليلة حتى صرت أهابها ..

أهابها وأكرهها ..

الم أعدكم أن تكون أسطورة مملة ؟

* * *

٩ ـ الراحلة ..

على المسرح المرتجل ظهرت ثلاث راقصات من ذلك الطراز الذى يؤدى حركات رياضية تذكرك بالجمباز .. تصاحبهن موسيقا خفيفة ..

ورأيت ثلاثة رجال أقوياء فارعى القامة سمر الوجوه ـ كالعادة ـ يدخلون إلى المكان .. كل شىء يوحى أنهم من الشرطة أو ـ على أقل تقدير ـ من الحرس الشخصى .. ولكن من أين جاءوا وكيف لم أرهم من قبل ؟

ونظرت فى دهشة إلى الجالسين .. لقد بدأ الحفل بعدد لا يتجاوز الخمسين ، لكن الآن ـ ما شاء اللّه ـ تكاثر العدد حتى دنا من المائة .. برغم أن هناك من مات ومن اختفى ومن ذهب لينتقم ..

لكن منظر هؤلاء الفتية الظرفاء ليس مما يبعث البهجة فى النفوس ..

رأيتهم يمشون فى ثقة .. يتجهون نحو ...

نحو (أكرم) .. هل تذكرونه ؟ الفتى العدوانى المتحمس الذى لا يرضى بكل اللطف والتعقل اللذين تتعامل بهما زوجة أبيه مع الأعداء ..

كان واقفًا ويداه فى جيبى سرواله ، ينتظر هؤلاء الرجال كى يقتربوا منه .. وسمعت أولهم وأقواهم شخصية يقول باحترام :

- « هل ننفذ الآن يا (أكرم) بك ؟ »

- « نعم .. لكن من دون ضوضاء .. »

وتقدم اثنان منهم فى سرعة وحزم ، وغابا وسط الزحام ، وفى اللحظة التالية رأيتهما يقتادان زوجة الأب - مدام (سلوى الصباغ) - بكثير من الاحترام لكن - كذلك - بكثير من الحزم .. لم يجرؤ أحدهما على معاملتها بقسوة ، لكن قبضة أحدهما على معصمها كانت تشى بما يحدث ..

وقفت المرأة بين الرجلين أمام ابن زوجها ، وفى مرارة قالت :

ـ « ستندم يا (أكرم) .. »

لم ينظر لها ، وقال وهو يشعل لفافة تبغ :

ـ « لن أندم .. لقد حان الوقت كى يتولى الأمور شخص قوى .. شخص يعرف كيف يبطش ، وأنا أكره أن أكون تحت إمرة سيدة ضعيفة .. ومن الآن سيعود لاسم أسرة (الصباغ) مجده القديم .. سنكون الأغنى والأقوى والأشهر »

ـ « وماذا سيفعلون بى ؟ »

قال فى وقار وهو ينفث الدخان :

ـ « لا شىء .. سيتم إبعادك إلى مكان آمن ، وأتولى أنا كل شىء .. بالمناسبة لقد قمت بإزالة اسمك عن كل العقارات والبيوت ، ولسوف أوقع باسمى الخاص فى أى تعامل قانونى من الآن فصاعدًا .. »

ـ « أنت تتصرف بحماقة الشباب .. »

ـ « وأنت تتصرفين بتردد الشيوخ .. »

ثم أشار إلى الرجال كى يأخذوها خارج المكان ، فنظرت له لكن الوقار منعها من أن تقاوم .. رفعت رأسها فى شمم ومشيت معهم متجهة إلى الباب ..

هذا هو واحد آخر سيغادر الفيلا لا يعلم إلا اللّه كيف ..

ما هذا المشهد الدرامى ؟ وما معناه ؟ والغريب أنه لم يثر انتباه أحد غيرى ..

الهاتف .. هل عادت الحرارة ؟ لابد من إبلاغ الشرطة وهى وحدها القادرة على معرفة سر هذا السيرك العجيب ..

طبعًا لم أبحث عن د. (سامى) ، وهرعت إلى الحجرة الصغيرة الجانبية التى كان فيها الهاتف .. لحسن الحظ أن الباب غير موصد ..

عالجت الباب ، ودخلت إلى الظلام ..

هناك شخص ما ..

أنثى على وجه التحديد ؛ لأننى أسمع الأنين وأشم رائحة عطر فاغم مسكر ..

بحثت يدى عن مفتاح النور .. ها هو ذا .. من الغبى الذى وضع المفتاح على هذا البعد عن الباب كى ... ؟

فيما بعد قرأت أن كاتب الرعب الأشهر (ستيفن كنج) يترك أضواء شقته مضاءة ، كى لا يعود إليها فى الظلام ليبحث عن مفتاح النور .. عندها يشعر باليد الباردة على يده !!

حسن .. يمكن القول إنه بعيد النظر ..

هذه (كاتيا) ..

كانت جالسة إلى المكتب الصغير ، وقد غطى شعرها وجهها فبدت كمدمنى المخدرات فى أفلامنا العربية .. وكانت فى أسوأ حال .. رأسها يترنح كأنما وزنه قنطار .. رأتنى ففتحت عينين حمراوين عن آخرهما وقالت :

ـ « أنت من جديد ؟ أنت كالكابوس لا تنتهى أبدًا .. »

ثم انفجرت فى ضحكة متوحشة مجنونة وقالت :

- « لكنى لن أراك ثانية حتى لحظة البعث .. »

ولما رأت على وجهى مخايل الغباء قالت فى خبث :

- « حفاو ! حفاو ! »

ثم سقطت على الأرض كأنها دمية ماريونيت انقطعت خيوطها ..

ولم أحتج إلى كثير جهد كى أعرف أنها ماتت ..

* * *

هل هؤلاء إسرائيليون ؟ هل هذه المرأة بالذات إسرائيلية ؟

لغات قليلة جدًا فى العالم تستعمل الحاء بالإفراط الذى تستعمله هذه المرأة .. والأغلب أنها لغات سامية .. منها العربية والعبرية والفارسية .. وكانت أذنى الحساسة لا ترتاح كثيرًا لحرف الحاء فى لفظة (حفاو) هذه .. أنت تعرف كيف تبدو العبرية لمن يسمعها .. لها رنين مقبض كأنه نجمة داود ذاتها ..

هل هؤلاء القوم غريبو الأطوار إسـرائيليون ؟ لا أظن .. ليس عليهم تلك المسحة العبرانية المميزة لليهود الشرقيين ، ولا هم يبدون أجانب ..

ما معنى هذا ؟

طبعًا لم أكن أفكر فى هذا وأنا جالس أشرب الشاى وأدرس جثتها .. كنت أفكر فى هذا كله وأنا أهرع بين الغرف بحثًا عن د. (سامى) تعس الحظ ..

أخيرًا وجدته وكان واقفًا مع زوجته مدام (ثريا) يتهامسان .. واضح أنه يقول لها باختصار : ثمة شىء غير مريح فى هذا الحفل ..

رأى وجهى ، ومعه رأى إشارتى الخفية أن اترك كل شىء وتعال معى ، وهكذا وضع يده على معصم الزوجة كى تنتظره ثم لحق بى ، وفى الطريق وجدنا د. (رمزى) فأخذناه معنا ..

القوم حولنا عابثون لاهون حتى إننى افترضت أنه يمكن أن نخرج الجثة لنلقيها فى الشارع دون أن يسألنا أحد عما نفعل ، لكن لم يكن ثمة داع لهذا طبعًا ..

وفى الحجرة كانت الجثة ـ التى كانت لحسناء ـ مكومة جوار المكتب شاخصة العينين ..

تقريبًا لطم د. (سامى) خديه .. وراح يردد :

ـ « يا سلام ! ما أجمل هذا ! جثة ثالثة ! يا له من حفل ! »

أما (رمزى) فقال بكل هدوء واضعًا يده فى الماء البارد :

ـ « ما سبب الوفاة يا د. (رفعت) ؟ »

صحيح .. هذا سؤال وجيه ..

ركعت جوار الجثة وتفحصتها بسرعة .. لا يوجد ما يريب .. قلت وأنا أتفحص المعصمين :

ـ « من الصعب أن تجزم دون تشريح .. لكن تصرفها غير الطبيعى وحالة الجنون التى كانت فيها توحى لى بأنها تعاطت جرعة زائدة من مخدر ما .. »

ـ « هذا جميل .. لكن أين هو ؟ »

ـ « فى معدتها طبعًا .. كيف تتوقع أن تجده ؟ »

عاد (رمزى) يسألنى فى تدقيق :

ـ « هل قالت شيئًا قبل وفاتها ؟ »

ـ « لا أذكر .. كانت مجنونة .. ثم قالت شيئًا على غرار حـ .. حصاو .. حصاوى .. حلاو .. »

ـ « ما معنى هذا ؟ »

أشرت إلى السماء إشـارة ذات معنـى .. علـم هـذا عند الله ..

تساءل د. (سامى) وهو يجفف عرقه :

ـ « ولماذا انتحرت الحمقاء ؟ »

قلت فى ثقة :

ـ « ومن قال إنها انتحرت ؟ ربما لم تحسن تقدير الجرعة .. ولو كانت انتحرت فطبعًا لأن الأخ (ماريو) قد مات .. هذا هو الجزء الواضح من الموضوع .. »

هنا ركع د. (رمزى) على الأرض ، ونظر إلى ما تحت المكتب فى اهتمام .. ثم نهض وقال :

- « هذه المرة لا أرى أن ننقل الجثة من مكانها .. سنتركها هنا ونغلق الباب جيدًا .. لن نظل هنا للأبد ، ولسوف يأتى رجال الشرطة ويفسرون لنا كل شىء .. »

وخرجنا من الغرفة محمرى الآذان مرتبكين حتى لو أن أحدًا رآنا لقبض علينا بتهمة قتل المرأة دون مناقشة .. وتذكرت كيف كانت تملأ المسرح حبورًا ودلالاً منذ ساعة تقريبًا .. ثم قررت ألا أطلق العنان لهذه الخواطر ، لأنها قد استهلكت من فرط الترديد .. هذه حقائق مفروغ منها .. فقط هى تذكرنا بمأساتنا الخاصة ..

الواحدة صباحًا ولم يتغير شىء فى الحفل ولا من فيه ..

ألم أعدكم أن تكون أسطورة مملة ؟

* * *



هنا ركع د.(رمزى) على الأرض ونظر إلى ما تحت المكتب فى اهتمام ..

١٠ ـ نخاف أن نفهم ..

فى الواحدة والربع صباحًا جاءوا لينهوا الأمر ..

جاءوا وفى عيونهم الغضب والرغبة فى الانتقـام ، وكان واضحًا من منظرهم أنهم لا يمزحون ..

جاءوا ولا أدرى من أين دخلوا ولا كيف ..

فقط مشوا وسط الناس ، وكـان الحفـل قد تحـول إلـى فوضـى تامـة .. كـل الطراطـير علـى الأرض والأكواب المهشمة والمقاعد التى انقلبت أو تحركـت ، حتى صار المكان بحاجـة إلى ديناميت لا تنظيف .. وكـان البعض قد بدأ ينظـر إلـى ساعته .. البعـض الذين كنا نعرف بالضـبط من هم ومـن أيـن جاءوا ، وأما هؤلاء السمر الذين نبتوا فـى المكـان فجـأة فقد بدا أنهم سيظلون هنا إلى الأبد ..

رأينا هؤلاء الرجال ، وعددهم لا يقل عن العشرين ..

أصغر واحد فيهم فى حجم باب الغرفة التى تقرأ فيها هذه الكلمات .. لكنهم لم يكونوا سمر الوجوه .. كان لهم طابع البحر المتوسط لكنهم بالتأكيد ليسوا عربًا ..

وفى المقدمة ـ محتفظًا بهيبته وزعامته الواضحة ـ رأيت الشاب (باسم) .. هل تذكرون رجل (صا الحجر) الذى شرب فى كأس برونزية ؟ لقد عاد ..

يبدو أنه استأجر مجموعة من البلطجية من مكان ما .. ولم أدر أنه من السهل أن تجد بلطجية فى الواحدة صباحًا ، لكنه فعل ذلك ..

وتصلب الفتية الأحد عشر فى مكانهم ، وكانوا غارقين فى محادثات ممتعة على ما يبدو ، ثم انتبهوا حين ساد الصمت .. نظروا ليروا الفتى قادمًا ومعه رجاله ، وفى عينه آيات التصميم والتحدى ..

قال لهم فى تؤدة :

ـ « لقد عدت ومعى هؤلاء الأصدقاء اليونانيون .. ولسوف تدفعون الثمن غاليًا .. إما أن تقبلوا أن أكون صاحب الكلمة العليا ، وإما أن يكون انتقامى مريعًا .. »

قال له أحدهم وهو يتظاهر بأنه ليس خائفًا إلى هذا الحد :

- « (باسم) .. نحن لا نتعامل بالبلطجة هنا .. من الصعب أن تحصل على ما تريد قسرًا .. »

- « أنتم طردتمونى ظلمًا وزعمتم أننى كاذب .. لوثتم شرفى وشرف أسرتى ، والآن تقولون إن القوة لن تحقق شيئًا .. هذه نظرية تحتاج إلى برهان .. »

وتأهب البلطجية للقتال متخذين أوضاعًا سينمائية جميلة .. بعضهم كور قبضته ورفعها فى الهواء ، وبعضهم أخرج قبضة نحاسية راح يضرب بها كتفه .. وبعضهم ضغط على زنبرك مديته .. بينما البعض أخرج شيئًا كالجنزير ..

- « الآن هل ترغبون فى القتال أم تعلنون الخضوع لى ؟ »

تبادل الشبان النظرات . كان من الواضح أنهم سيستسلمون ، لكنهم فقط تمنوا لو كان الاستسلام أقل خزيًا من هذا .. وببطء أطرقوا الرءوس ..

قال لهم (باسم) فى شمم :

ـ « الآن نخرج معًا ، وفى الطريق ستعرفون كيف أن (صا الحجر) ستبدأ عصرًا جديدًا .. عصرًا يمكنكم أن تطلقوا عليه العصر (الصاوى) .. »

وهكذا خرج الاثنا عشر رجلاً ، ومعهم (القبضايات) اليوناتيون .. لقد أحدثوا تفريغ هواء لاشك فيه فى الحفل .. وتنهدت فى ارتياح .. هؤلاء القوم يخرجون ويدخلون بلا أية مشقة وليتنى أعرف كيف ..

هنا ظهرت السيدة السمراء التى تحمل الطفل قادمة من الطابق العلوى ، وكانت تردد فى جزع بعينين حمراوين :

ـ « ليس هناك .. (مصطفى) ليس هناك ! »

إنها مازالت تبحث .. ولا ألومها على كل حال ..

لكن خلفها رأيت امرأة تشبهها ، لكنها ليست مريحة على الإطلاق .. إنها من الطراز الذى (يكيد ولا يكاد) .. فمن هى ومتى ظهرت فى الصورة ؟

وسمعت من يقول لصاحبه من خلفى :

ـ « (هالـة) أخـت زوجهـا معهـا .. إنهـا تكرههـا بجنـون ، وتعرف كـل تفـاصيل الحيلـة القـذرة التـى دبرها أخوها الآخر .. الأم البائسة لاتعرف أن الساحر لم يكن سوى أخى زوجها متنكراً .. إن السـاحر قـد خطف أخـاه واللّـه يعلم مـا فعلـه بـه .. تلـك النفوس شريرة بحق .. »

هذا جميل لكنه لايهمنى على الإطلاق .. ربما يهم الشرطة لو استطعنا الاتصال بها ، وإن كنت أشك فى هذا ..

هـذه الليلـة لانهايـة لهـا .. لمـاذا هربـت مـن (بيزارو) ؟ على الأقل هذه أشياء اعتدتها .. يد مبتـورة تطاردك أمرها هين ، لكن ما يحدث الآن يثير الدوار والصداع ..

جاء د. (رمزى) وزوجته وجلسا جوارى ، وكـان يشرح لهـا فيما يبدو حقيقة أننا محبوسـون هنـا لأن الذعر بدا عليها .. ثم نظر لى وابتسم فى إرهاق وقال :

ـ « ماذا يحدث هناك يا دكتور ؟ »

ـ « لاشىء .. ذلك الشاب من (صا الحجر) استعاد السيطرة على الأمور بمساعدة بلطجية يونانيين .. والزوجة ما زالت تفتش عن زوجها .. »

ـ « وماذا عن الشاعر ؟ »

نظرت حولى فى كل مكان فلم أجده .. لكن لامشكلة هنالك .. هل يمكن العثور على شاعر ؟ ربما كان فى الحديقة ينعم بالمطر ، وربما كان فى الشرفة وربما كان فى دورة المياه .. حتى الشعراء يدخلون دورة المياه أحيانًا ..

لكن رأيى تغير حين وجدت رجلين أصلعى الرأس يقفان ليتبادلا الحديث الهامس مع (محب) .. ذلك الرجل القوى الذى يحل مشاكل الشاعر ويقهر له أعداءه .. رأيته يهز رأسه موافقًا وعلى ثغره شبح ابتسامة .. من هذان الرجلان ؟ لهما سمات هؤلاء (البانك) الذين تراهم فى الأفلام الأمريكية اليوم ، لكن لم نكن

نعرف موضة كهذه فى السبعينات .. وكانا شريكين .. هذا واضح ولا يحتاج لمن يسألنى عن السبب ..

بعد دقائق ظهرت الفاتنة الرقيقة زوجة الشاعر ، وهى تفتش فى قلق ، وسمعتها تصيح :

-« (مراد) ! (مراااااد !) »

لكن أحدًا لم يبال بها .. ومرت بنا ونظرت لى نظرة متسائلة ثم واصلت البحث ..

تقابلتْ مع السيدة السمراء التى اختفى زوجها فتبادلت المرأتان نظرة متفاهمة ، وانطلقت كل واحدة منهما تبحث عن زوجها فى اتجاه ..

هرعتْ إلى الرجل القوى (محب) ، وبدا أنها تسأله ، بينما هو راح يربت على كتفها مطمئنًا .. ثم انطلق يبحث معها عن زوجها ..

قال د. (رمزى) وهو يتابع المشهد :

- « أعتقد أنهما لن يجدا زوجها أبدًا .. »

- « يا أخى حرام عليك .. كن متفائلاً .. »

قال فى ضيق وهو يسترخى فى مقعده :

ـ « سترى .. لقد اختفى نهائيًا .. »

ثم نظر فى عينى والتمعت فى عينيه نظرة لئيمة ، وقال :

ـ « هل تريد أن تأتى معى ؟ ثمة شىء أريد أن نتأكد منه فى تلك الغرفة التى تركنا فيها الجثة .. »

ـ « أية جثة .. لقد ازداد العدد كثيرًا .. »

ـ « لا تكن طفلاً .. أعنى جثة الراقصة الشابة التى تحب الإيطاليين .. »

ـ « لا أفهم .. لكنى سأفعل .. »

ومشينا وسط الناس إلى حيث كان د. (سامى) يقف أمام الشرفة ، يرمق الليل البارد فى الخارج ، وهو يتمنى أن يكون هذا كله حلمًا ....

طلبنا منه مفتاح الغرفة وعدنا إلى هناك وعالجنا الباب حتى فتحناه ..

كان النور مضاء والجثة ما زالت حيث هى لم تفر لحسن الحظ ..

من جديد ركع د. (رمزى) على ركبتيه تحت المكتب وراح ينظر ثم قال لى :

- « أنا لا أرى جيدًا فى الظلام .. هل معك قداحة ؟ »

ناولته قداحتى ، فراح يفتش ثم ...

وثب إلى الوراء وسمعنا فحيحًا غاضبًا .. س س س س س س ! فهتف الرجل :

- « ردى بر حفاو إى باباو ! »

ثم قال لى وهو يشير إلى أسفل :

- « هل ترى ؟ هذا هو سبب الوفاة ! هل تراه ؟ »

لم أكن بحاجة إلى الركوع لأرى ؛ لأن ذيل الثعبان خرج من جانب المكتب متلويًا ثم عاد إلى الداخل ..

- « كوبرا مصرية ! لم تكن موجودة حين دخلنا أول مرة ، لأن المرأة كانت تخفيها فى طيات ثيابها ..

وأنت لم تتبين العضة لأنها فى الصدر تحت الثياب .. الآن برد الجسد وفارقته الكوبرا بحثًا عن جسد آخر .. »

ـ « ما معنى هذا ؟ لا أحد ينتحر بعضة ثعبان .. ولو حدث فمن أين تأتى به ؟ »

قال وهو يجفف عرقه :

ـ « قبل أن أجيب عن سؤالك أقول لك إن المرأة قالت لك (حفاو) .. أليس كذلك ؟ »

ـ « بلى .. ولكن ... »

ـ « وكانت قبل ذلك تتحدث عن (الحنقت) و (الحتب) كما قلت أنت من قبل لى .. »

ـ « نعم .. لكن لا معنى لهذا .. »

راح يلهث واتسعت عيناه من وراء عويناته وقال وهو يرتجف :

ـ « (حفاو) معناها ثعبان .. (حنقت) معناها بيرة أو جعة .. (حتب) بكسر الحاء والتاء معناها مائدة تقديم القرابين .. هل تعرفون بأية لغة ؟ بالمصرية القديمة ! »

تبادلت و (سامى) نظرة غباء مطبق ، بينما واصل الرجل هلوسته وهو يجفف عرقه :

- « كان ما قلته أنا هو تعويذة فرعونية لمنع خروج الثعبان من جحره .. ويبدو أنها فعالة !! »

قلت له وأنا أسند ظهرى إلى الجدار البارد :

- « كنت أخشى أن تقول هذا .. إن الأمر واضح لكننا جميعًا نخشى الاعتراف بالحقيقة .. هؤلاء فى خارج الغرفة هم من قدماء المصريين !! »

ألم أعدكم أن تكون أسطورة مملة ؟

* * *

١١ ـ لحظة الحقيقة ..

قال د. (رمزى) وقد اندمج تمامًا حتى كدنا ننسى أننا نتكلم فى غرفة فيها جثة وثعبان :

ـ « لو أنك تأملت ما حدث هذه الليلة لوجدت عجبًا .. »

ـ « هناك (عزمى) بك الذى يتمنى أن يشيد قبرًا فاخرًا يخلد ذكراه .. لقد سرق اللصوص جثة والدته من مقبرتها مرتين ، والقبر الذى يتحدث عنه لامثيل له .. لابأس .. كل الشيوخ يتكلمون بالطريقة ذاتها .. لكن ألا يذكرنا هذا بالملك (خوفو) وحلمه ببناء الهرم الأكبر ؟ أمه الملكة (حتب حرس) سرق اللصوص قبرها أولاً ثم مومياءها .. أليس هذا مثيرًا .. »

ـ « لنقل إنها المصادفة .. لكن ماذا عن مدام (الصباغ) العاقلة الرزينة التى تصر على أن تكون علاقاتها علاقات حب واحترام مع الآخرين ، بينما ابن

زوجها المتمرد (أكرم) يريد أن تكون علاقته بغيره قوامها الخوف والبطش ..وفى النهاية يقصيها ويزيل اسمها عن كل شىء ، ويبدأ حياة عدوانية تمناها كثيرًا .. »

قلت له وأنا أرتجف :

- « نعم .. هذه (حتشبسوت) و (تحتمس الثالث) .. الملكة التى حاولت أن تكون كالرجال ، وزعمت أنها ابنة (آمون) نفسه .. لكن (تحتمس) أقصاها ووزيرها وحكم مصر ، وبدأ عصرًا من الفتوحات .. لكنه أزال كل ما يدل على اسم (حتشبسوت) على المسلات والمعابد وكل شىء .. لقد فكرت فى هذا وأنا أتأمل الصراع .. »

قال د. (سامى) :

- « زوج من المجانين .. لقد صرتما جديرين بالدراسة .. سأقدم عن حالتكما ورقة علمية فائقة النجاح .. »

لم نأبه له وواصلنا تذكر ما حدث الليلة :

ـ « مدام أخرى هى (نجوى كاظم) التى فقدت زوجها ؛ لأن الجيران بلطجية ويضايقهم صوت الثلاجة .. » ـ واصل (رمزى) الكلام ـ « وفى النهاية أقنعت ابنها بأن ينتصر لها ويأخذ بثأر أبيه .. أليست هذه (أياح حتب) وأليس هذا (أحمس) وأليس الأب هو (سقننرع) ؟ أليس هؤلاء الجيران الوقحون هم الهكسوس الذين زعموا أن أصوات أفراس النهر فى الصعيد تضايقهم فى الوجه البحرى ؟ أليس هذا هو كفاح طيبة ؟ »

أضفت أنا فى حماس :

ـ « إذن ماذا عن الشاعر الحالم الذى تحدى الجميع وغاص فى أفكاره الخاصة ؟ دينه يختلف عن دين أبيه .. زوجته الحسناء التى لايشعر بوجودها وأمه الجميلة المسيطرة و (محب) الذى يجيد كل شىء .. والرجلان أصلعا الرأسين .. فى أى شىء يختلف هذا عن (إخناتون) والجميلة (نفرتيتى) ؟ وأمه الملكة (تى) ..

لاحظ تشابه اسم (محب) مع القائد (حور محب) .. وإذن كان الرجلان من كهنة (آمون) الغاضبين بسبب انصراف الملك عن معبوده إلى عبادة قرص الشمس (آتون) ، ويمكن القول إنهما أخذا (إخناتون) إلى الصحراء حيث قتلاه ودفناه .. أما الابن فهو (توت عنخ آمون) طبعًا .. »

- « كنت أتساءل عن البقعة البيضاء على عين الزوجة اليسرى .. الحقيقة أنها كانت تقلد تمثال (نفرتيتى) الذى سقطت عينه اليسرى ! هذا نوع من التلميح لا أكثر .. لسوف يسيطر (حور محب) على مصر لفترة ، وتموت (نفرتيتى) مقتولة .. كان الشاعر يقول إنه تحدى الرعاة والدعاة وحسبته يخرف .. الآن نعرف أنه كان يعنى كل حرف .. رباه !! »

حك د. (رمزى) رأسه وقال :

- « كل الأغنيات الغريبة والرقصات الغريبة طيلة الأمسية .. كل هذه فرعونية تمامًا ، لكننا خشينا الاعتراف بهذا .. »

ثم فكر قليلاً وأشار إلى الجثة وقال :

ـ « الراقصة الفاتنة التى تخرج من بساط ليسيل لها لعاب شيخ إيطالى .. أليست هى (كليوباترا) التى لم تجد سوى فتنتها كى توقع (يوليوس قيصر) فى حبائلها ؟ بعد هذا أوقعت رومانيًا آخر فى حبائلها هو (أنطونيو) ولم يغفر له (أوكتافيوس) هذا .. لقد كان أخا زوجته كذلك ، وجاء له بأسطول جبار والتقى الأسطولان فى موقعة (إكتيوما) وكانت الغلبة فيها لـ (أوكتافيوس) .. معنى هذا أن موقعة (إكتيوما) قد تمت الليلة على الإفريز تحت الأمطار خارج سور الفيلا ! تعود المرأة إلى غرفة منعزلة وتدس ثعبانًا فى صدرها وتموت .. لكنها قالت لك كلمة واحدة قبل موتها هى (حفاو) .. يبدو أنها كانت تفرط فى استعمال المصرية القديمة على سبيل انزلاق اللسان .. »

قلت فى حماس :

- « والعجوز الذى قتل تحت تمثال (بومبيى) .. كيف لم نلحظ هذا من قبل ؟ لقد قتل المتآمرون (قيصر) تحت تمثال (بومبيى) فى روما ، فلم يجد إلا الوقت الكافى ليقول : (حتى أنت يا بروتوس ؟ إذن فليسقط قيصر !) .. ثم سقط بعد ما تلقى عشرات الطعنات .. »

ساد الصمت وعقل كل منا يفند ما رآه وما سمعه فى تلك الليلة .. تلاحقت أنفاسنا واضطرب نبضنا ..

- « اثنا عشر شابًا يشربون فى كئوس بينما أحدهم يشرب فى كأس من برونز .. هذه قصة (بسماتيك) وأمراء الأقاليم المصريين .. فيما بعد اتصل (بسماتيك) بقراصنة مرتزقة من (كريت) وعاد معهم ليوحد مصر ويجعلها قوية .. وينشئ الأسرة السادسة والعشرين التى حكمت من مدينة (صاو) .. أى (صا الحجر) بمحافظة الغربية ! »

هنا تدخل د. (سامى) ليقول فى برود :

ـ « لحظة من فضلك .. لا يمكن أن نفترض أن المرأة التى ضاع زوجها هى (إيزيس) .. (إيزيس) إلهة وثنية ولم توجد إلا فى الأساطير .. »

قال د. (رمزى) الذى ـ ولا مراء ـ كان يلعب فى ملعبه الخاص الآن :

ـ « لا تنس أن لبعض الأساطير أساسًا تاريخيًّا .. (أوزيريس) كان أميرًا أو ملكًا من لحم ودم تآمر عليه أخوه (ست) وتخلص من جثته بعد ما حبسه فى تابوت ، فجابت الزوجة المخلصة أرجاء البلاد تجمع أشلاء زوجها كى يستطيع أن يرى البعث .. فيما بعد خلدت الأسطورة ، واعتبر المصريون (إيزيس) و (أوزيريس) إلهين .. وصار (ست) إلهًا للشر .. »

قلت أنا :

ـ « وأخت (أوزيريس) الشمطاء كانت (نفتيس) .. بينما الابن هو (حورس) الذى له رأس صقر .. »

صاح د. (سامى) فى جنون وهو يوشك على الإصابة بفالج :

ـ « أنتما مجنونان !!! هل تريدان القول إن ملوك الفراعنة قد جاءوا دارى يتسلون فى ليلة رأس السنة ؟ »

قلت مبتلعًا ريقى :

ـ « نعم .. كل الدلائل تقول ذلك .. »

ـ « والسبب ؟ »

قال د. (رمزى) :

ـ « أما هذا فلا يستطيع أحد أن يخبرك بـه ، ولا أحسبهم إلا عاجزين عن إخبارك هم أيضًا .. »

ـ « وماذا نعمل ؟ »

قلت وأنا أتجه إلى باب الغرفة :

ـ « لا أعتقد أن علينا أن نفعل شيئًا .. سننتظر .. وهم لن يبقوا هنا للأبد .. المهم ألا يشعر ضيوفك العاديون بشىء أو يتجهوا إلى البوابة الآن .. »

وخرجت من الغرفة .. فقط لأتصلب .. ومن جيبى أخرجت علبة أقراص النيتروجلسرين ووضعت قرصين تحت لسانى .. إن ما رأيته ..

رهيب ..

* * *

كانت الأضواء كلها مطفأة فى القاعة كلها .. وكان الصمت الرهيب يخيم على المكان ..

ثمة مشاعل فى عدة أماكن لا أعرف من أين جاءوا بها ..

وكان هناك كهنة صلع الرءوس عراة إلا من مئزر حول الخصر ، يحيطون بمائدة البوفيه الطويلة التى هى عدة موائد متلاصقة .. وفى مركز الصدارة منهم كان ذلك الشىء المخيف الذى له جسد إنسان ورأس ابن آوى طويل الخطم .. إنه (أنوبيس) الذى اعتبره المصريون القدامى مسئولاً عن التحنيط والمقابر ..

رأيت أحد ضيوف الحفل يتقدم فى خطوات ثابتة .. كان هو (بسماتيك) .. فى وقار تمدد على المنضدة ووبطء بدأ الكهنة عملية تحنيطه على ضوء المشاعل ..

إن عملية التحنيط مرهقة تحتاج إلى أربعين يومًا ، لكنهم كانوا يؤدونها بسرعة كأنما هم يمثلون لنا ما يحدث .. يملئون الأنف والفم بالكتان المشبع بالراتنج الأسود ثم يضمدون العينين .. لن أصف عملية إخراج الأحشاء والمخ ، لأنهم لم يقوموا بها فعلاً ، لكنهم قاموا بها بشكل رمزى .. ووضعوها فى الأوعية الكانوبية ..

بعد هذا غطوا الجثة كلها بملح النطرون ، بينما صوت صلاة غامض ينبعث من لا مكان .. ثم غسلوا الملح مستخدمين عرقى البلح .. وبدءوا يملئون الفراغات التى لا أدرى متى تكونت بنشارة الخشب المخلوطة بالراتنج والقرفة والمر ..

الآن يغطون الجثة بالنطرون مع راتنجات صمغية مثل اللبان الذكر (الكندر) والمر وزيت الأرز .. وبعدها يلفون الجثة بطبقات الكتان .. الكاهن الذى يلبس جلد الفهد يتقدم ليلمس بعصاه فم الجثة ، ويردد بعض الأدعية ، كى يتمكن الميت من فتح فمه لحظة الحساب .. والدفاع عن نفسه ..

* * *

« أيها العظيم (بتاح حتب) .. لا تتركنى أيها الأب الطيب .. كيف يمكن أن تتركنى بعيدة عنك ؟ إنى أعود الآن من المدافن وحيدة .. أنت يا من كان يحلو لى الكلام معك صرت الآن صامتًا .. »

ابنة الحكيم (بتاح حتب) ترثى أباها وهى عائدة من المقبرة

* * *

نظرت للناس فوجدت على رءوسهم الطير .. لم يجسر واحد على الكلام أو الدهشة أو التساؤل ..

ورأيت الكهنة يضعون الجثة فى تابوت لا أدرى من أين جاءوا به ، وتقدم بعض الشباب يحملونه خارجين ببطء من القاعة .. وفى اللحظة ذاتها تقدم الملك (خوفو) الذى كان (عزمى) بك ، لينام على المنضدة ويمر بهذه الطقوس ذاتها ..

كان ضوء المشاعل خافتًا لكنى بحثت حتى وجدت د. (رمزى) يرمق المشهد مفتونًا ذاهلاً .. كدت أتكلم لكنه أخرسنى بإصبع على شفتيه ..

لم تستغرق طقوس تحنيط (خوفو) سوى عشر دقائق .. كما قلت لكم هم اختصروا الأربعين يومًا فى عشر دقائق .. ومن بعده جاء دور (إخناتون) .. واستغرق ثلث ساعة ..

اللحن الجنائزى مستمر ، والأخ (أنوبيس) يجول كالشيطان بين الكهنة .. ورائحة البخور تتصاعد إلى الأنوف حتى لتوشك على فقدان وعيك خدرًا ..

الآن جاء دور (حتشبسوت) فابنها .. ثم (أياح حتب) فابنها (أحمس) .. ثم (إيزيس) .. ثم (كليوباترا) ..

أخيرًا يخرج التابوت الأخير على أكتاف الشباب السمر الأقوياء .. وأسمع نساء يصرخن ويبكين فى حرقة ..

وساد الصمت إلا من صوت طقطقة الخشب فى المشاعل ، وأسمع من يقول : أضيئوا الأنوار .. لكن لم يكن من داع لهذا لأن ضوء الفجر كان قد بدأ يتسرب إلى القاعة ..

وهرعت إلى الباب فرأيت أن الضباب يملأ الحديقة .. الضباب والبرد ، لكن المصابيح ما زالت مضاءة تشى بليلة صاخبة .. ووسط الضباب لمحت آخر تابوت يذوب على أكتاف حامليه ..

وأدركت أن البوابة مفتوحة على مصراعيها ..

كان الصمت والوجوم يفعمان القاعة الآن .. لقد بقى نحو عشرين من الضيوف الطبيعيين يفركون عيونهم ، ولا يفهمون شيئًا ، لكن الهلع بدأ يدب إلى عيون النساء ..

هنا صفقت بيدى فى حماس ورحت أضحك .. أضحك أمام العيون التى تظن بى الظنون ..

ثم هرعت إلى د. (سامى) فلثمت خديه فى حرارة ، وصحت :

- « برافو ! كان هذا أروع عرض رأيته فى حياتى .. لقد خدعت الجميع ! كلهم حسب الأمر حقيقيًّا ! »

وهتف د. (رمزى) الذى التقط الخيط :

- « هذه أروع مفاجأة شاهدتها فى ليلة رأس السنة طيلة حياتى .. صدقنى .. لقد جربت رأس السنة فى (الدانمارك) و (ألمانيا) و (فرنسا) .. لكنى لم أر عرضًا بهذه القوة وهذه البراعة !! »

لكن صوته كان يرتجف ، ولمحت دمعة رهبة وتأثر فى عينه ..

وسمعت فتاة لبنانية من الضيوف تصرخ :

- « واو ! ما أجملها من سهرة !! »

وفتاة مصرية تصيح :

ـ « ياى ! أوريجينال ! كلما بدا الأمر مخيفًا كان أكثر إثارة .. »

أما الرجال فبدءوا يصفقون ، وهرع بعضهم يصافحون الرجل قائلين إن الأمر بدا حقيقيًّا إلى حد أنهم أصيبوا بالهلع .. فكان د. (سامى) يهز رأسه فى تواضع قائلاً :

ـ « إنه (عباس) .. لقد وعدنى أن يعنى بالتفاصيل كلها ! »

وأخيرًا بدأ الناس يودعون المضيفين الكريمين ويرحلون قائلين إنها أجمل ليلة رأس سنة رأوها فى حياتهم ..

* * *

وفى العاشرة صباحًا بينما الخدم يزيلون أثر الغزاة الذى بدا كأن ثورًا دخل معرض الخزف الصينى ، كما تقول القصة القديمة ، ومعهم مدام (ثريا)

ومدام (مارى) البائستين طبعًا ، كنا نحن نجلس فى الحديقة التى غمرتها الشمس أخيرًا .. شمس أول يوم فى العام الجديد ..

لم يبد لأحدنا أن هذه الليلة كانت حقيقية ، لكن لاتوجد هلوسة جماعية .. ولا يوجد حلم جماعى ..

قال د. (رمزى) :

ـ « لقد صدق الحمقى ما قيل لهم .. »

قلت :

ـ « لو عرفوا الحقيقة لملئوا الدنيا صراخًا .. ليس من المستحب أن يعرف الجميع حقائق الأمور .. »

ـ « نحن لم نعرف شيئًا .. لماذا حدث ما حدث ؟ لو افترضنا أن هؤلاء القوم كانوا أشباحًا أرادت أن تعيد تمثيل حياتها أمام الناس ، فلماذا اختارت هذه الفيلا بالذات ؟ »

قال د. (سامى) فى شرود :

ـ « إنها ليست المرة الأولى .. هل تذكر يا (رفعت) حلقة الرعب ، و (شكرى) الذى كان يبحث عن التسلية فجاءنا ليسمع قصص الرعب منا ؟ ثمة أشياء غريبة تحدث فى هذه الفيلا ولا أجد لها تفسيرًا .. إنها تتمتع بجاذبية غير مسبوقة للأشباح والكائنات الغريبة ، وبينى بينكم أعتقد أننى سأتركها . لم أعد أطيق الحياة فيها يومًا آخر .. »

ـ « لا ألومك .. كما أن فكرة أن أتناول طعامى على مائدة استخدمت للتحنيط ، لا تروق لى كثيرًا .. »

وتبادلنا النظرات المتوترة والمنبهرة ..

أخيرًا قال د. (سامى) :

ـ « يمكننا أن ننسى كل شىء عن هذه القصة .. لم يعد لها أثر مادى ولا معنوى .. سنفترض أن هذا كله كان كابوسًا جماعيًا .. بل هو بالفعل كابوس جماعى وقد صحونا منه .. »

ساد الصمت لمدة عشر دقائق ، وفجأة سمعنا صراخًا قادمًا من داخل الفيلا ..

جرينا لنجد أن الخدم يحملون المكانس ويقفون أمام الغرفة الصغيرة التى انتحرت فيها (كليوباترا) صباح اليوم .. كانوا ما بين إحجام وإقدام وأعتقد أننى فهمت السبب ..

رآنا أحدهم فصاح فى جزع :

- « لا مؤاخذة يا دكتور .. أم (هند) تزعم أن هناك ثعبانًا عملاقًا تحت المكتب !! »

* * *

حين يعدكم (رفعت) إسماعيل بأسطورة مملة فإنه يعنى ما يقول ..

كما قلت لكم كانت أسطورة مملة .. وقد وفيت بوعدى ..

حـان الوقـت الآن لـنرجع إلـى أسـاطيرنا التـى (تحبس الأنفاس من فرط الغموض والرعب والإثارة) .. فى القصة القادمة أتحدث عن نبوءة .. وكان صاحبهـا عرافًا شهيرًا .. لكن ...

ولكن هذه قصة أخرى .

* * *

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط
الغموض والرعب والإثارة

● صدر من هذه السلسلة ●

سافاری

صدر من هذه السلسلة :

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/٣٥٠٢

٩٧٧ - ٢٦٦ - ٧٤٥ - ٢